د. وليم نصّار
أنا إسرائيل

الكاتب اليساري

المجلة المهجرية الوحيدة المتخصصة

يسارية – أكاديمية – فكرية – ثقافية - نقدية

Issue No. 78 :: April 2023

تعنى بابداع الكاتب وحرية النص

العدد رقم 78 : نيسان - أبريل 2023

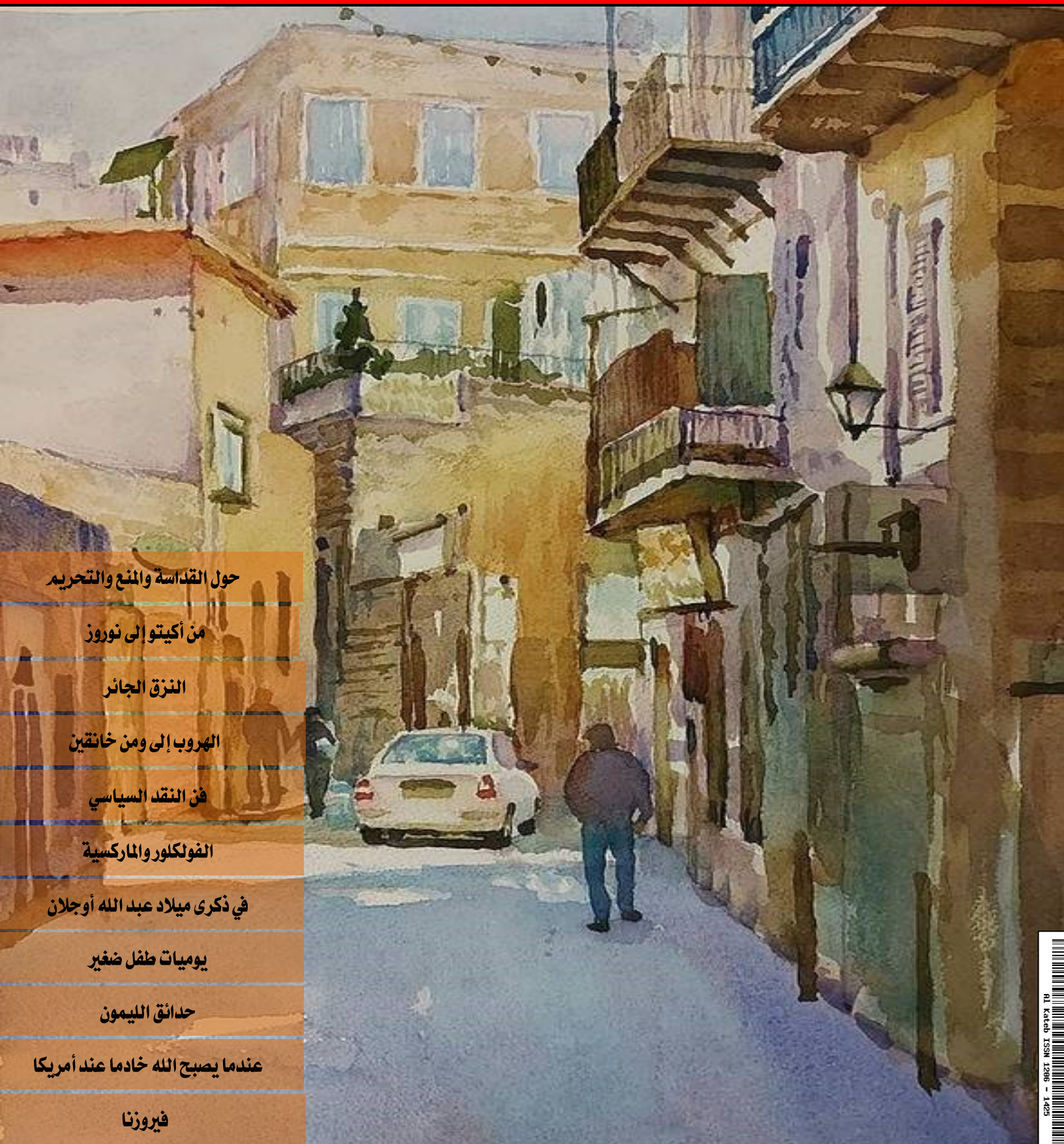

حول القداسة والمنع والتحريم

من أكيتو إلى نوروز

النزق الجائر

الهروب إلى ومن خانقين

فن النقد السياسي

الفولكلور والماركسية

في ذكرى ميلاد عبد الله أوجلان

يوميات طفل ضغير

حدائق الليمون

عندما يصبح الله خادما عند أمريكا

فيروزنا

Al Kateb ISSN 1206 - 1425

كونوا شركاء في المحاولة

□ الكاتب مشروع ثقافي أكاديمي لبناني وعربي أسسه مجموعة من المثقفين والمبدعين اللبنانيين والعرب المقيمين في أوروبا، أمريكا الشمالية، والولايات المتحدة الأمريكية.

كانت تصدر الكاتب تحت إسم عيبال، ومن ثم البديل، إلى أن استقر الرأي على اعتماد إسم الكاتب عنوانا للمجلة.

تقصد مجلة الكاتب إلى إثارة السؤال الثقافي العربي في الواقع الراهن، محاولة منها برفده بصوت الجدل الحيوي، المفضي إلى السوية الثقافية، والمحفز إلى مزيد من التلاحم بين الثقافي – الفكري، بل وحتى السياسي في زمن أصبحت التحديات الثقافية أقرب إلى الزلزلة منها إلى الأخذ بالتي هي أحسن، ذلك أن أحوال الثقافات والمثقفين قد تبدلت وأصبحت رهن سيادة الطوائف والأحزاب، وأصبح المثقف أو أشباهه، والجاهل المتثاقف في زمن الفايسبوك يشترى ويباع في أسواق نخاسة الأنظمة والأجهزة والسفارات والغرف السوداء.

إنساننا اللبناني والعربي في الأوطان الأم، وفي المهاجر والمنافي، يجب أن ينهض، وثقافتنا ينبغي أن تتطور وتتوطد، ولابد أن نواجه الراهن ونستعجل أوان نضجه الطالع بالظفر. فكل إبداع هو كوة حرية، وكل فعل هو انعتاق، وكل تلاحم فكر إنساني هو زمن آت.

تمر حيوات، بيد أن حياة ممتلئة هي تلك التي تكتنز الابداع وتثمر الحرية، ولمجلة الكاتب فيها سويعة، لو عانقت أقلامكم واحتضانكم لها، ولا وقت يمر دون بشاراته.

يعمل فريق مجلة الكاتب وأصدقاؤها بشكل تطوعي من أجل:

- توثيق الثقافة والفن الانساني اللبناني والعربي، القديم والموروث، وتقديمه إلى المجتمعات الغير عربية بالوسائل الاكاديمية، عبر محاضرات ثقافية، وترجمة دراسات عن الثقافة والفن والتاريخ اللبناني والعربي، ومن خلال تنظيم معارض فنية وأمسيات موسيقية مع موسيقيين أكاديميين غربيين.
- يشجع ويتبنى فريق الكاتب أعمال الكتاب والشعراء والمبدعين اللبنانيين والعرب، أو المتحدرون من أصول عربية، ويتم نشر إبداعاتهم في مجلة الكاتب التي تصدر بعدة لغات، كما يتم التعريف بتلك الأعمال والابداعات للجمهور العربي والغربي سواء في الأوطان الأم أو المهاجر.
- يؤمن فريق مجلة الكاتب بحرية الفكر والتعبير، ويعتبرهما ركيزة أساسية لبناء المجتمع الديمقراطي اللبناني والعربي، الغير طائفي، والذي يسوده العدل والمساواة والقانون.
- يعمل فريق الكاتب مع المثقفين والمبدعين التقدميين الاوروبيين والعرب في التبشير بضرورة السلام في الشرق بالتوازي مع مقاومة التطبيع السياسي والاقتصادي مع دولة إسرائيل، ليس لأننا لا نؤمن بضرورة حل النزاع في الشرق، بل لأنه لا يمكن أن يكون هنالك سلام في ظل الاستمرار بسياسة الاعتقالات الجماعية، ومصادرة الأراضي، والاعتداءات العسكرية التي لا تنتهي من قبل إسرائيل على وطننا لبنان والدول العربية المجاورة.
- يغطي فريق الكاتب إصدار النسخة الورقية المطبوعة، وكذلك تكاليف الموقع الالكتروني عبر نشر بعض الاعلانات في كل عدد لمرسسات ثقافية وإنسانية وتربوية. إنما التكلفة الحقيقية هي في الجهد المبذول من قبل الفريق لاصدراها، وتبرعات الكتاب والمبدعين بانتاجهم الفكري.
- يعمل فريق المجلة دون مقابل وبشكل تطوعي.
- بانتظار أقلامكم ودعمكم الابداعي□□

فريق الكاتب

العدد
78

تصدر عن عيبال للثقافة البديلة
Published by: Ebal For Alternative Culture
Non Profit – غير تجارية

The Leftist Writer
A Cultural Review in
Arabic & Other Languages

الكاتب اليساري
أكاديمية ـ نقدية ـ ثقافية ـ سياسية ـ فكرية
مجلة يسارية تصدر بعدة لغات

Editor-In-Chief
Composer and Political Singer
Dr. William Nassar

صاحبها ورئيس التحرير
المؤلف الموسيقي والمغني السياسي
د. وليم نصار

سكرتيرا التحرير
د. فيوليت دمياطي
د. منهال حديدي

مستشارا التحرير
عز الدين المصري
لينا حوا

مدراء التحرير
جوزفين قرنجية
مارون سلوم
يزن الأحمد
Anna White

فريق الكاتب
حسن زيدان
سلاف العلي
كمال أبو عيسى
أنطوان الراسي
جريس سلامة
حمزة مرتضى
علي الحسن
Richard Bordeaux
Chantal Temin

استشارة قانونية
Legal Advisor
Katarina Theodorakis
كاترينا ثيودوراكيس

إعلانات
كارولين قحطاني
Vera Bellianti

مدراء الصفحة الالكترونية
نيرودا خوري
Patrick Laroc
Mary Quick

النسخة الالكترونية
https://al-kateb.com
E-Mail: alkateb@journalist.com
https://facebook.com/majallatalkateb

رقم التسجيل الدولي
ISSN 2563 - 3007

كلمة العدد

4
د. وليم نصّار
أنا إسرائيل

المقال

5
الفضل شلق
حول القداسة والمنع والتحريم
6
سليمان يوسف يوسف
من أكيتو إلى نوروز
7
ماجد ع. محمد
النزق الجائر
17
أحمد السيد علي
الهروب إلى ومن خانقين
18
د. ياسين الحاج صالح
اثنا عشرية الهَوْل: خواطر عن الكتابة والمجزرة وطيف الثورة الهائم
18
د. عبد الحسين شعبان
صورة الجواهري: الشاعر والشعر
32
بثينة تروس
ود المك ... زلزل رجال الدين

تغريدة

35
نوال شق
فيروزنا

النقد

8
عبد الرحمان النوضة
فن النقد السياسي
24
نجاة تميم
العنف الرمزي وإخفاء علاقات الهيمنة والاستغلال
26
أحمد عمر زعبار
عندما يصبح الله خادما عند أمريكا
29
د. عبد الغني سلامة
ابن عربي ... حياته وفكره
31
د. نعيمة عبد الجواد
عميد الشعر العربي ورائد حركة الحداثة: أبو تمّام
33
زينب محمد عبد الرحيم
الفولكلور والماركسية

القصة

16
دلور الميقري
حدائق الليمون
30
طالب عباس الظاهر
متواليات قصصية

القصيدة

28
هاشم معتوق
حديث الموسيقى
30
عايدة بدر
ولو بعد حين
32
د. لؤي الشقاقي
جورية بيضاء
34
حسين عبد الساتر
يوميات طفل ضغير

واحات

27
د. خليل قانصوه
الاستعمار المتحول
25
ضيا اسكندر
في ذكرى ميلاد عبد الله أوجلان ... قصة حقيقية لعاشِقَين

الغلاف: للتشكيلي اللبناني غازي توتنجي
Cover: Painting by Ghazi Toutanji, Lebanon
تصميم وإخراج: زينب ريحان – يولاند صادق، Guy Reynolds
طبع من هذا العدد 1500 نسخة ورقية وزعت مجانا على المراكز الثقافية والجامعات والمكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الشمالية، أوروبا، أستراليا واليابان

❑ تنويه:
ربما سيخرج علينا البعض في أمريكا الشمالية، الولايات المتحدة وأوروبا للاحتجاج على أن هذه المقالة معادية لما يسمى السامية. أو ربما يتطوع أحد المناضلين القومجيين واليساريجيين أو أحد الشبيحة عبدة الحذاء برفع تقرير عبر حساب مزيف إلى الأف بي آي أو المخابرات الكندية كما حصل أثناء فترة علاجي من السرطان في نهاية العام 2014 وبدايات 2015 .

أنا إسرائيل،
أتيت إلى أرض بلا شعب من أجل شعب بلا أرض. والذين وجدناهم يعيشون على تلك الأرض رأينا أنه ليس لهم الحق في العيش عليها، ولذا فقد أجبرهم شعبي على الرحيل بعد إزالة 400 قرية وبلدة فلسطينية عن الوجود ومسح تاريخها.

د. وليم نصار
رئيس التحرير

أنا إسرائيل،
بعضا من مواطني دولتي ارتكب مذابح وجرائم ضد الانسانية، وأصبح لاحقا رئيسا للوزراء.
في العام 1948، ميناحيم بيغن كان المسؤول عن عصابة صهيونية مسلحة ذبحت ونكلت واغتصبت مئة إمرأة بعد قتل أطفالهن في بلدة دير ياسين، ولمكافأته على جريمته انتخبه شعبي رئيسا للوزراء. وفي العام 1953، قاد آريل شارون عملية الذبح والتنكيل في سكان قرية قبية، وأعاد الكرة في العام 1982 بالتحالف مع أعواننا من العرب بذبح واغتصاب أكثر من ألفين مدني لبناني وفلسطيني في مخيم شاتيلا. ولمكافأته على جريمته، انتخبه شعبي رئيسا للوزراء أيضا.

أنا إسرائيل،
استوليت في العام 1948 على 78% من أرض فلسطين، وطردت سكانها الأصليين واستبدلتهم بيهود من أوروبا ودول أخرى من العالم. منحتهم الجنسية فور وصولهم من مزابل أوروبا والولايات المتحدة إلى مزبلة إسرائيل، بينما أصبح السكان الأصليون الذين أنجبوا أول الفدائيين "يسوع الناصري" يتيهون في أرجاء المعمورة وليس لهم الحق في العودة إلى الأرض التي عاش عليها آباؤهم وأجدادهم آلاف السنوات.

أنا إسرائيل،
ابتلعت في العام 1967 ما تبقى من أرض فلسطين - الضفة الغربية لنهر الأردن وغزة - ووضعتهم تحت حكم عسكري قاس، وسيطرت على كافة مناحي حياتهم، تماما كما فعل بنا هتلر في أوروبا.
في الحقيقة، كانت تلك رسالة مباشرة للفلسطينيين في قرى وبلدات الضفة وغزة أننا لا نقبل بوجودهم على هذه الأرض وعليهم أن يلتحقوا بملايين اللاجئين الفلسطينيين في مخيمات لبنان وسورية والأردن.

أنا إسرائيل

أنا إسرائيل،
أنا من القوة للسيطرة على الولايات المتحدة الأمريكية والتحكم بقراراتها السياسية، وليس باستطاعة أي سياسي أمريكي أن يعارضنا أو ينتقدنا، فمجلس العلاقات العامة الاسرائيلية الامريكية يستطيع تدميره، وكما ترون فانهم جميعا يتنافسون لارضائي.
كل قوى العالم ضعيفة أمام قوتي، بما في ذلك الأمم المتحدة حيث الفيتو الأمريكي الجاهز دوما ليكون بخدمتي وأمرتي وفي الوقت الذي أشاء لمنع أي إدانة ومحاسبة على الجرائم التي أرتكبها. وكما قال رئيس ورزائي المحبوب يوما: "نحن نسيطر على أمريكا".

أنا إسرائيل،
تأثيري على وسائل الأعلام الأمريكية واضح جدا، وستجدون دائما أن وسائل الأعلام جميعها تنحني لرغبتي. استثمرت مليارات الدولارات في الفضائيات الاخبارية والصحف والمجلات الكبرى وهم يقومون بعمل رائع في الترويج لي وتغيير مسار الأحداث لأظهاري كضحية وإظهار ضحيتي قاتلا وإرهابيا.

د. وليم نصار مؤلف موسيقي ومغني سياسي كندي من أصل مشرقي
https://williamnassar.com

أنا إسرائيل،
يا أيها الفلسطيني تريد التفاوض من أجل السلام؟ لكنك لست بمستوى ذكائي فكيف ستفاوضني؟
حسنا، سأفاوضك في أوقات فراغي، ولسنوات على عدد سني عمرك، ومن بعدها لن أعطيك أكثر من بلدية لكنني سوف أبقى مسيطرة على حدودك وهواءك ومياهك وسماءك وكل ما هو ضروري لراحة أحبائي اليهود القادمون من أوروبا. وبينما أنا أفاوضك، سوف أستمر في ابتلاع هضابك وتلالك لأقيم عليها المستوطنات والمستعمرات التي سيسكنها أكثر اليهود الأوروبيين تطرفا وقذارة ومسلحون بأعتى أنواع الأسلحة. هذه المستوطنات والمستعمرات ستكون متصلة بطرق لن تستطيع أنت استخدامها، وستكون أنت كالجرذ العالق في مصيدة محاصرا بنقاط تفتيش من كل الجهات.

أنا إسرائيل،
جيشي رابع أقوى جيش في العالم وأمتلك أسلحة نووية، فكيف يجرؤ أطفالك أيها الفلسطيني الغوييم أن يرجموا جبروتي بالحجارة؟ ألا تدرك أن جنودي لن يترددوا في تفجير رؤوسهم بالرصاص المبارك من "يهوه" رب الجند التوراتي؟

لقد قتلت خلال سبعة عشر شهرا تسعمئة (900)، وجرحت سبعة عشر ألفا (17000) منكم، جلهم من المدنيين، وسوف أستمر في قتلكم في ظل عدم اكتراث العالم بكم، ولن أصغي لبعض الأصوات اليهودية الشاذة "والتي لا نعترف بيهوديتها" المستاءة من قتلكم وترفض الخدمة في جيش يهوه.

أنا إسرائيل،
تريدون الحرية؟
أنا أمتلك الرصاص، الدبابات، المدافع، الطائرات والصواريخ.
صادرت بيوتكم وأراضيكم، اقتلعت أشجار زيتونكم ومحوت تاريخكم ولا زلتم تطالبون بالحرية؟
ألم تفهموا أيها الأغبياء الرسالة بعد؟
لن تحصلوا أبدا على سلام، ولن تحصلوا أبدا على حريتكم ... لأنني ببساطة أنا إسرائيل❑❑

حول القداسة والمنع والتحريم

الفضل شلق
لبنان

وهذه تعبّر عن رؤى مختلفة حول الحاضر. المجتمعات السياسية والمنفتحة تتسامح حيال التعدد. ما زلنا غير قادرين على ذلك. في حاضرنا نحن غير قادرين على التسامح حيال التعددية كما كان أسلافنا، كائناً من كانوا.

نبحث في التاريخ ليس من أجل الأصل بل من أجل التطوّر. معرفة تطوّر مجتمعاتنا تفيدنا في فهم حاضرنا. وهناك فرق بين أن يكون فهم الحاضر نابع من فهم التاريخ أو العكس.

❑ تبدأ السردية التاريخية لكل جماعة من اللحظة التي تعتبرها نقطة الأصل أو البداية. يحب الأفراد أو الجماعات أن يكون لكل منهم أصل. وكلما كان أكثر قدماً كان أكثر استحساناً. فالأصالة صفة ايجابية يتغنى بها الجميع، بل يسعون إليها. تعني الأصالة تجزراً في التاريخ، وكأن المعني بها قد شارك في أمجاد الماضي. فكأن العرب الأقحاح، أو الذين يعتبرون أنفسهم كذلك، قد شاركوا في الفتوحات. كثيراً ما تزدهر صناعة "شجرة العائلة". فأصحابها يريدون الانتماء الى أصل معيّن. فيستأجرون من يلفق لهم هذه الشجرة.

لكن المسألة تدخل أصحابها في صعاب. إضافة الى بداية التاريخ من الحاضر، فدول المنطقة التي ترجع الى دول غير موغلة في القدم، كإيران التي تعود الى الدولة الصفوية التي بدأت مع بدايات القرن السادس عشر، والدولة التركية التي تعود الى القرن الرابع عشر، تعاني صعوبة في شرح ما قبل ذلك، إذ لا يتفق مع الدين المعتمد. لكن اتصال الدولتين الزمني بدولتين سابقتين يساهم في حل مشاكل راهنة. فالحداثة تقضي أن يكون جميع من في الدولة متساويين في المواطنة، أو على الأقل يُعترف لهم بالتعددية، وهنا تبرز مسألة التناقض بين الأصالة والحداثة. فالأصالة تعني تفوّق بعض من في المجتمع الذين يعتبرون تاريخهم قديم، والحداثة تطمس ذلك وتعني بالنسبة لدولة ديكتاتورية، وكل دولنا ديكتاتورية، أن يكون الجميع متساويين في الطاعة. وهذا يتطلّب أسلوب عيش لا بدّ منه كي يكون الفرد مقبولا لدى السلطة.

للأصالة مشاكلها وللحداثة مشاكلها. ذلك لا يحل إلا بالسياسة، وهذه ملغاة في دولنا الاستبدادية التي لا تتحمّل أن يكون المرء مختلفاً.

في رواية التاريخ الإسلامي يطغى الأصل العربي، لكن الحاضر العربي ليس فيه أمجاد وانتصارات نظراً للهزائم والحروب الأهلية وانقطاع تاريخهم فترة طويلة. فتاريخهم على مدى القرون الخمسة الماضية مرتبط بالدولتين الإيرانية الصفوية والتركية العثمانية، بشكل أو بآخر. لذلك لا عجب إذا حاول بعض الأتراك والإيرانيين والمستشرقين تجريدهم (أي العرب) من "أمجاد" الفتوحات والدول الإسلامية المبكرة، حيث كانت الخلافة عربية قرشية، وكانت أيضاً سلطة سياسية حقيقية. وهذه مشكلة حادة عند الإيرانيين، وهي ليست كذلك عند الأتراك، بل تصير كذلك إذا ربط هؤلاء تاريخهم بعهود وجودهم قبائل ودول في أسيا الوسطى. يعرف الإيرانيون أنهم ورثة فرس ما قبل الإسلام، أما الأتراك فإن الأصول التركمانية والتترية والمغولية تجعل الأمر صعب التحديد.

يعاني العرب صعوبة في سرد تاريخهم. إذ ليس فقط هناك دول عربية متعددة لكن، وهذا هو الأهم، هناك في وعيهم انقطاع في تاريخهم وتعددية في معظم مجتمعاتهم، كجماعات تعتبر نفسها إثنية أو قومية وتختلف مع الجماعات الأخرى في السرد التاريخي. ما زال التأريخ لمنطقتنا يقرره المستشرقون أو ما يسمى الخبراء الأجانب. في البلد الواحد لا تستطيع جماعة طائفية أو دينية كتابة تاريخها بما يتفق مع جماعة طائفية أو دينية أخرى. تستطيع الدولة الإيرانية أو الدولة التركية فرض قراءة موحدة على مجتمعها، ولا تستطيع أي دولة عربية أن تفعل ذلك. السردية التاريخية لبلاد ما تتعلّق بالوعي وكيف يرى المجتمع نفسه. ليس المطلوب أن تفرض دولنا العربية كتابات تاريخية موحدة لكل منها بل أن تتسامح مع الكتابة التاريخية الحرة والموضوعية، وأن لا تعتبر طمس التاريخ هو الطريق الوحيدة لمعرفته. نرى في عدد من البلدان العربية إلغاء مسلسلات تاريخية بعد عرض الحلقة الأولى أو الثانية، لأن مجرد ذكر أو إظهار شخصيات أو حوادث تاريخية مما لا يتناسب مع رؤية أو حساسيات بعض الجمهور يسبب هجومات شرسة من الجمهور أو بعض المتفرجين الذين يعتبرون هكذا مسلسلات مساساً بالروح الدينية او القومية. يضيق مجال الحرية الفردية أو الجماعية. لا تُعرض مسلسلات تاريخية إلا ما يرضي الجميع. فيحذف الكثير من التاريخ أو أننا نصير أمة دون تاريخ. أو أن تاريخنا كعرب يحافظ عليه المستشرقون أكثر مما نحافظ عليه.

ليست المسألة أن يكون لنا تاريخ موحد، أو أن ينتظم التاريخ وحوادثه في كل متناسق. التاريخ ذاته لكل بلد وكل منطقة في بلد ليس متناسقاً ولا نستطيع فرض التناسق إلا تعسفاً. والتعسف في فرض الرؤية التاريخية مؤشر على انعدام الحرية في مجتمعاتنا. لا يسود مناخ الحرية إلا عندما نُنزل عدداً كبيراً من مقدساتنا والمقدسين لدينا الى المجال العام لمناقشة فكرهم، ومناقشة الحوادث التي نتجت عن أفعالهم. هم في الأساس بشر ويتوجب علينا أن نعيدهم بشراً كي ننزع عن أنفسنا قدسية مفتعلة ناتجة في نظرنا، وبالنسبة إلينا، عن ارتباطنا بهم. كأن مجتمعاتنا صارت بسبب المنع والتحريم محاكم تفتيش تذكرنا بمحاكم التفتيش الكنسية في القرون الوسطى الأوروبية.

طريق الحرية هو أن نخفف المقدسات، وصولا الى إلغائها كي تصير كل أمورنا موضع بحث وتحليل وشك وتساؤل. ننغلق على أنفسنا، ونفرض على مجتمعاتنا أن تصير مغلقة، بمقدار ما تزداد مقدساتها. وتنمو العروبة بالمعنى الحديث بهذه الحرية. التعددية في المجتمع، وهي عـامة في كل المجتمعات، تفترض قراءات مختلفة للتاريخ، ما زلنا ندين، حسب معتقدنا، شخصيات تاريخية كان لها الأثر الكبير في زمانها، وفي الأزمنة اللاحقة. فكأننا نريد الماضي أن يكون متناسباً مع أمزجتنا. لا نتسطيع أن نتقبل تاريخنا بعجره وبجره. وذلك ضرورة لكي يكون لدينا فكر موضوعي، علما أن الموضوعية لا تفترض الحياد. علينا أن نعرف قبل أن نقرر الموقف من الحدث أو من فاعل الحدث. أما الإشاحة بوعينا عما حدث لأنه لا يروقنا، فهذا يقود الى الجهل. هناك طفولة معرفية في أن لا نعرف إلا ما نريد أن نعرف، كما أن هناك ضعف نفسي وعصاب في أن نشيح بوعينا عما لا يتناسب مع ما نريد. التاريخ سلسلة متواصلة. كما يهمل بعض الشعوب الإسلامية تاريخهم قبل الإسلامي، نهمل نحن العرب حقبة في تاريخنا عندما كنا في الدول الإسلامية غير العربية، ونسمي ذلك عهود الانحطاط. ربما كان بعض الأكاديميين أكثر نضجا وموضوعية من الجمهور، لكن الوعي السائد انتقائي في النظر الى التاريخ. عهد الأمجاد بالنسبة لمعظمنا هو عصر الفتوحات. وما عدا ذلك لا يكون موضوع الحديث والتداول. ألا نفقد أصالتنا حين نعود الى عصور "مجيدة" ونقفز فوق عصور نعتبرها عصور الانحطاط. بالمناسبة، كانت عصور "الانحطاط" السياسي، أي حين لم يكن العرب الأقحاح في السلطة، في معظم الفترات، عصور ازدهار ثقافي وإبداعات فكرية واكتشافات علمية. ولا ندرك أن العصور التي لم يكن فيها العرب الأقحاح أصحاب السلطة السياسية كانت في نفس الوقت عصور استيعاب شعوب غير عربية وتعريبها في الوقت نفسه. ومن يتكلم اللغة العربية، بأية لهجة، في الحياة اليومية، لا يستطيع التهرّب بسهولة من الانتماء العربي، والعروبة هي هذا الانتماء. وهي ليست الأصل والأصالة.

ما نحتاجه هو البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لا الاقتصار على السطح السياسي. الثقافة أو الثقافات الرائجة في مختلف مجتمعاتنا هي وليدة تطوّر وتواصل لا انقطاعات. لو بنينا وعينا التاريخي على الانقطاعات لما كنا موجودين.

تنقصنا الموضوعية في النظر الى تاريخنا. وهذا سبب للهزيمة الثقافية أو الحضارية التي تنتج عنها الهزائم السياسية والعسكرية. حبذا لو ننزل المقدس من عليائه ليصير جزءاً من هذه الدنيا؛ يفيدنا في ذلك خفض منسوب المنع والتحريم ❑❑

من أكيتو إلى نوروز

سليمان يوسف يوسف
سورية

❑ في كل عام، مع حلول أعياد (نوروز) و (أكيتو) يتجدد السجال حول "الجذور التاريخية" لهذه الأعياد الربيعية الشعبية القديمة، المرتبطة بـ (تجدد دورة الحياة والخصب في الطبيعة مع حلول فصل الربيع). في هذا المقال المتواضع سأتناول العيدين من وجهة نظر تاريخية ، ودوافع القوميين الكرد من تسييس و تكريد "عيد النوروز".

فيما يخص "عيد الأكيتو - عيد رأس السنة الأكادية البابلية الآشورية " يعد أبرز الأعياد القومية والشعبية لدى (السريان الآشوريين)، طبعاً معهم أبناء (الكنيسة الكلدانية)، فهم أحد المكونات الأساسية لـ(الأمة البابلية الآشورية)، يحتفلون به في الأول من نيسان من كل عام . التقويم البابلي الآشوري بلغ مع الأول من نيسان الحالي (6773)، هذا يعني بأن "عيد الأكيتو" هو أقدم عيد عرفته البشرية، أنه العيد العابر للتاريخ والجغرافيا السياسية.

من مدينة (أور)، عاصمة (الدولة السومرية) مركز أقدم الحضارات، كانت الانطلاقة الأولى للاحتفال بالعام الجديد " عيد الأكيتو ". من أور انتقلت الاحتفالات بهذا العيد إلى بابل و آشور ونينوى ونمرود وأربيل وباقي مدن بلاد الآشوريين. لا حقاً انتقلت الاحتفالات بـ(عيد الأكيتو - عيد رأس السنة البابلية الآشورية) إلى معظم شعوب وأقوام الإمبراطورية (البابلية - الآشورية) التي توسعت شرقاً وغرباً.. في الساحل السوري يحتفلون به باسم "عيد القوزلي" و "عيد الرابع من نيسان".

المصريين يحتفلون به باسم"عيد شم النسيم". سقوط الدولة (الآشورية – البابلية - 539 ق. م) وخضوع (بلاد ما بين النهرين) للإحتلال الفارسي، المحتلين الفرس اقتبسوا بل سرقوا الكثير من الحضارة البابلية الآشورية، مثل (التقويم البابلي الآشوري). (عيد الأكيتو)، سموه بلغتهم الفارسية "النوروز أو النيروز" وهو يعني" اليوم الجديد"، يعتبر "عيد رأس السنة الفارسية"، الاحتفال به 21 آذار يوم الاعتدال الربيعي. وفق كتاب (إيران في عهد الساسانيين) للمؤرخ (آرثر كريستنسن)، من الفرس انتقل (عيد الأكيتو) باسم" نوروز" إلى مختلف الأقوام والأعراق الفارسية الإيرانية، بينهم الكرد، والى الشعوب الآرية في آسيا الوسطى وغرب آسيا.

(سليم مطر) يقول في كتابه (الذات الجريحة): "الإيرانيون وحتى قبل احتلالهم للعراق - بلاد ما بين النهرين- ظلوا يقتبسون الحضارة العراقية من كِتابة ولغة وفنون وعلوم وأفكار دينية، ومن جملة الأمور التي إقتبسها الإيرانيون كان التقويم البابلي وتقسيم السنة، وعيد السنة العراقية، وأطلق الإيرانيون على هذا العيد العراقي تسمية نيروز".
القوميون الكرد لم يكتفوا بتقليد الفرس باقتباس (عيد الأكيتو) البابلي الآشوري، والاحتفال به باسم "عيد النوروز"، وإنما سيسوه، روجوا له على أنه "عيد كردي"، ألفوا حوله روايات وحكايات شعبية بوقائع هي من نسج خيالهم. مجلة (مزكين) العدد (78) 5 آذار 2018، وهي مجلة كردية للأطفال تصدر بالعربية عن (مؤسسة روناهي في شمال سوريا)، نشرت مقالاً بعنوان "كاوى الحداد .. إشراقة يوم جديد"، جاء فيه "كان هناك ملكٌ اشوري شريّرٌ يسَمّى (الضحاك).

هذا الملك ومملكته قد لُعِنا بسبب شرّه... حتى الشمس رَفضتْ الشُروق وكان من المستحيلَ نَمُو أيّ نبات... وكان كاوى الحداد قد أخذ على عاتقه إنزال الضربةَ القاتلةَ بالملكِ الشريّر الضحاك. وكانت إشارة البدء بالثورة هي إضرام النار في قمة الجبل، ذلك الصباح بدأت الشمس بالشروق ثانية وأزهرت النباتات من جديد وبات ذلك اليوم هو يوم عيد النوروز...".

المثير أيضاً في موضوع احتفالات الأكراد بـ"عيد النوروز"، أن القوميين الكرد أخذوا من تاريخ (سقوط نينوى) على يد الميديين الفرس (عام 612 قبل الميلاد) بداية تقويمهم الخاص" الروزنامة الكردية".

(21 آذار الماضي بلغ التقويم الكردي 2635). زاعمين بأن أسلافهم "الميديين" هم من أسقطوا(الدولة الآشورية)... هنا نتسائل: إذا كان الأكراد "شعباً بذاته"، أسقطوا الدولة الآشورية قبل 2635 عام، فلماذا لم يقيموا (دولة كردية) على أنقاض (الدولة الآشورية)؟.

إخراج عيد النوروز (عيد الربيع) من سياقه التاريخي وربطه بحكايات وروايات شعبية لا واقعية "كاوى الحداد "والاحتفال به على أنه "ثورة كردية ضد ملك آشوري" و"ذكرى إسقاط الأكراد للدولة الآشورية"، فيه كثير من المغالطات التاريخية والسياسية وتضخيم لـ"الذات الكردية" واصطناع بطولات وانتصارات تاريخية لا وجود لها في التاريخ الكردي، ناهيك أن تسييس وأدلجة لعيد الربيع "عيد النوروز" بطريقة مثيرة للأحقاد والكراهية العرقية يسيء كثيراً للعلاقة (الآشورية - الكردية). فبدلاً من أن يكون" عيد النوروز" مناسبة لمد جسور التواصل وتعزيز العلاقة بين السريان الآشوريين والأكراد والعمل معاً لما فيه خير ومصلحة الشعبين وجميع شعوب المنطقة، غلاة القوميين الكرد جعلوا من "عيد النوروز" (اسفيناً) بين (الشعب الآشوري) و(الشعب الكردي). كيف للسريان الآشوريين مشاركة الأكراد احتفالاتهم بسقوط (الدولة الآشورية)؟.❑❑

النزق الجائر

❑ "يظهر معدن الإنسان الحقيقي عند الغضب"
علم النفس
"إذا كان الجهاد الأعظم هو جهاد النفس
فإن العدو الأكبر هو الغضب"
(فيجاي إسواران)

كثيراً ما نسمع من المحيطين بنا عبارات تبرّر انفعالات الأشخاص النزقين، وربما ردَّد بعضهم في أكثر من مكانٍ ومناسبة جملة: أن من يغضب بسرعة يكون محقاً، أو أن من كان سريعاً في إبداء التشنج والعصبية يكون على صواب، علماً أن علم النفس يشير إلى ما هو مخالف تماماً لهذا التصورالذي تم تعميمه وتسويقه لكي تبرَّر تصرفات مَن كانوا أسرع من الطلقات في كشف ما يستبطنونه.

ويبدو أن فريقاً من القراء أو المستمعين استساغ كلام الشاعر السوري الراحل نزار قباني "إني لا أؤمنُ في حب، لا يحملُ نزقَ الثوار، لا يكسرُ كلَّ الأسوار، لا يضربُ مثلَ الإعصارِ" الواردة في قصيدة (إختاري) لذا أحبوا تعميم معناه واستخدامه في مساحات لا تتناسب ربما لا مع مقصد القصيدة ولا مع الرسائل التي أراد إبلاغها الشاعر من خلال تلك الكلمات التي تحث المرأة على الجرأة في اتخاذ القرار.

كما أن كلمة النزق التي التصقت بكلمة الثوار من قِبل الشاعر قد تكون مستهجنة باعتبار أن معظم مرادفات النزق قاموسياً هي سلبية بالجملة كالطيش، الغلواء، الهوج، الحمق، الرعونة، السفه، الخفة، الجهل، العجالة، الخرق والحمق و..الخ، إلاَّ أنه من خلال ربطها بالثائر حمّلها بقيمة معنوية عالية، ونزع عنها كل الإيحاءات السلبية، بما أن صورة الثائر ما تزال لها ذلك الوقع الجميل في نفوس أغلب الفتية في مجتمعاتنا، ولكن هذا لا يعني بأن المتصف بالطائش والمعروف عنه ككائن نزق مقبول من قبل العامة، بالعكس تماماً فالشخص النزق قليلاً ما يكون مرحباً به سواء في محيطه الضيق أو من قبل البعيدين عنه، هذا إن لم يكن ممقوتاً من قبل معظم معارفه على ما يصدر عنه من ردات الفعل اللامحمودة.

عموماً إذا كانت سرعة الفوران وانفجار الإنسان بوجه أخيه الإنسان لأتفه سبب عمل مبرر له، ومستساغ من قبلهم، لكي يشرعنوا إندلاقاتهم السلوكية من قبعانهم بسبب وبلا سبب، فلماذا نلوم الطغاة على القرارات الدموية نتيجة غضبهم،وحيث أن الطاغية عندما يغضب يدمر، يقتل، يفتك بالناس، يحرق الأخضر واليابس،كما أن المجرم كثير الغضب والسارق يغضب وقد يضرب من يقوم بسرقته أو ربما قام بقتله أيضاً لأنه كشف أمره، والاستغلالي يغضب كذلك الأمر لأنه لم ينل مراده فيما كان يرسم ويخطط له مع ضحيته،إذن فهل كل هؤلاء محقون فقط لأنهم يعلنون عن غضبهم تجاه مسألة ما؟ أم أن كل واحد منهم يعبّر عما يكنه كفرد، وعما يفكر به، وعما يتضارب مع مصلحته الشخصية أو العائلية أو الحزبية أو العشائرية أو الدينية أو القومية، وأن غضبه بالأصل لا علاقة له البتة بقيم الحق والعدل والإنصاف، فهو لم يغضب لأنه ظُلم إنما عبّر عن مكنونه بطريقة نزقة لأنه شعر بأن ثمة مَن يزاحمه في الموقع السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو العسكري، انفجر لأنه شعر بأنه ما كان معمراً في مخياله غدا قاب قوسين من التلاشي.

كما أنناواقعياً إذا ما اقتربنا من ذلك الغضوب وقرأنا أسباب الإمتعاض لديه على الأغلب سيظهر بخلاف تصور العامة حول صوابية المستنفر لأيّ سبب، باعتبار أن هناك من يغضب منك لأردأ الأسباب التي تخصه ولا تتعلق بك، ويعلن عن اهتياجه من شيء ليس له أي مبرر، وعلى سبيل المثال:
فالذي ينزعج من زميل له بكونه يمشط شعره بطريقة ما تخالف نظرتهلآلية تسريح الشعر، فهل ثمة كائن بشري سيعطي الحق للممتعض على انزعاجه ذاك، أليس إنزعاجه عائد لخلل سيكولوجي لديه قائم على جعل البشرية كلها متماشية مع ذوقه الشخصي؟ ومثال آخر: فالذي يتضايق من شخص ما لأنه ينهض بأشياء عظيمةأويقوم بأعمال لا يقدر على القيام بها الآخر أليس دليل قاطع على أن نفور الشخص مبني على الحسد لا غير؟ ما يعنيبأن غضب الشخص منه بكونه لا يقدر على أن يقوم بما قام به الآخر دليل علة نفسية لدى الشخص الغضوب؟

حقيقةً يبلغ المرء منتهى الحيرة أمام بعض المواقف الصادرة من لدن إخوانه البشر في هذا الإطار، باعتبار أن أية مشكلة ينبغي أن يكون فيها طرف قام بتصرف يضر الآخر أو أن فيه شيء من علامات التطاول على ما يخص الغير حتى يكون سبباً مقنعاً لاهتياج الآخر، ولكن بماذا يرد المرء على شخص يعلن تذمره بلا أي سبب سوى أسبابه ومراميه الكامنة والخاصة به، كغضب جارٍ على جار آخر والانفجار الممقوت في وجهه لأن الأخير قام بشراء قطعة أرضٍ جديدة أو أضاف سيارة أخرى إلى سياراته أو بلغ رؤوس قطيعه الألف، أو قام بتوسيع دكانته أو بتلوين الأشجار الواقعة على الحدود بينه وبين جيرانه وذلك لئلا يُخطئ العمال يوماً أثناء القطف فلا يقطفوا شيء من ثمار الجيران، أو قيـــام أحدهم بترسيم حـــدود أرضه التي هي له بالتمام والكمـــال، فماذا يرد صاحب السيارة أو الدكان أو القطيع أو الأرض على جاره الممتعض من زيادة أو إنشاء ما يخصه،فيزبد ويرعد لأن جارهلوّن جذوع أشجاره أو سوّر أرضه، ففي الواقع يحتار صاحب الأرض مع هكذا جار لأن تذمره ليس مبني على أي منطق عقلي أو فكري أو قانوني، باعتبار أن الأرض له وهو حر التصرف بها قانونياً أمام مؤسسات الدولة واجتماعياً على النطاق الشعبي والعرف العام، فماذا إذن يرد صاحب الأرض على جارٍ مهتاج وكلتذمره وغضبه مبنيان على أساسٍ جائر؟ وماذا يفعل الجـار مع هـكذا جار، هل يلجأ للمحـــاكم أم يستفتي الجيران الآخرين حيال الموقف؟بينما الكل يؤكد بأن الممتعض لا يحق له الامتعاض أو الاعتراض طالما أن الشخص لم يقترب ولو مسافة شبر من حدود جيرانه، وبيان المساحة كذلك الأمر يؤكد بأن الذي لوَّن أشجاره لم يقترب من أشجار الجيران، والذي سور أرضه لم يتقدم سنتيماً واحداً نحو تخوم جيرانه، إذاً غير موضوع الانشغال بإيجاد الطريقة المُثلى للرد على هذا الممتعض، أليس هذا التصرف الذي لا يمت للحق والعدالة بصلة يدفعنا للتفكير بسبب انزعاج ذلك المجاور، وطرح التخمينات التي دفعته لإعلان التذمر ومنها أنه كان يُفضل في سره أن تبقى أشجار الجار على حالها مباحة للرايح والغادي، وأن تكون أرض الجار مفتوحة وغير مسيجة لأنها كانت ملعباً لدجاجاته ومربط أو مكان استراحة دواب جيرانه من الخرفان والحمير والبغال، إضافةً إلى ما كان يدور بخَلَدهفي أن يوسع حدوده في المستقبل ويضم شيء من مساحة أرض الجيران إلى عقاره، وقد يقول قائل وكيف خمّنت ذلك؟ فنقول التخمين لم يأتي من فراغ إنما جاء بناءً على التصرف وما تفوه به الممتعض بعد تفكيك ما قاله إلى وحدات صغيرة وتفسير أبعاد تلك الكلمات مع المشكلة التي اختلقها يظهر لنا بأن الحسد والأحلام التوسعية للجار هي وحدها كانت وراء غضبه الجائر.

إذ في بعض الأحيان لا يحتاج المرء لوقوع عظائم الأمور حتى يدرك كوامن بعضهم، إنما ثمة مَن يعبّر عن مكنونه في أصغر المواقف، وسرعة الغضب والانفعال المباشر معيار مهم ليس حيال كشف مستطبنات الآخرين من خلال قبح الانفعالات وحسب، إنما هو مهم أيضاً حيال موضوع اتخاذ الأصحاب والأصدقاء وحيث يقول الأحنف بن قيس لابنه: "يا بُني، إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فاغضبه، إن أنصفك فصاحبه وإن لم ينصفك فاحذره".❑❑

ماجد ع. محمد
سورية

UNIVERSITY OF TORONTO

فنّ النقد السياسي

عبد الرحمان النوضة
المغرب

❑ هذا مقال نَظَري سِيَّاسِي، يَتَنَاوَلُ مَوْضُوع "فَنُّ النَّقْد السِيَاسِي". والمَقْصُود هنا بِعِبَارَة "النَّقْد السِيَاسِي" هُو تَبَادُل الْإِنْتِقَادات الفِكْرِيَة والسِيَاسِيَة، فيما بين أشخاص أو جماعات، حَوْل قَضَايَا نَظَرِيَة أو سِيَاسِيَة. وَيُحَاوِل هذا المقال الإِجَابَة على الأَسْئِلَة التَّالية : لِماذا نَحْن البَشَر، نَتَلَافَى عَادَةً مُمَارَسَةَ النَّقْد (سَوَاءً كان هذا النَّقْد نَظَرِيًّا، أم سِيَّاسِيًّا) ؟ وَلِماذا لَا يَتَحَمَّلُ عَادَةً البَشَر التَعَرُّضَ لِلنَّقْد، رغم إِحْتِيَّاجِنَا جَمِيعًا لهذا النَّقْد، بِهَدَف إِبْرَاز، وَمُعَالَجَة، مَا فينا مِن نَقَائِص، أو لِتَصْحِيح مَا نَحْمِلُه مِن تَصَوُّرَات فِكْرِيَة خاطئة، أو لِتَقْوِيم مَا قَدْ نَتْزَلِقُ فيه مِن مُمَارَسَات سِيَّاسِية رَدِيئَة، أو مُنْحَرِفَة ؟ ولماذا بعض الأنواع من النَّقْد السياسي (خُصُوصًا فيما بين المُناضلين، وَفيما بين قِوَى اليَسَار المُتَنَافِسَة) يَخْلُق مِن المَشاكل أكثر مِمَّا يُعَالِج ؟ وَمَا هو أُسْلُوب النَّقْد السياسي الذي يَقْبَلُه الشَّخص المُنْتَقَد، وَيَنْفَعه ؟ وعلى عَكْس ذلك، ما هو نَوْع النَّقْد السياسي الذي يَفْشِل، دُون تَحْقِيق هَدفه الأصلي، والذي هو إصلاح الشَّخْص المُنْتَقَد ؟ وما هو مَنْهَج النَّقْد السَّلِيم الذي يُفِيد المُناضلين، أو المُواطنين، أو القِوَى السياسية الثورية ؟ وَمَا هو نَوْع النَقد الذي تَحْتَاج قِوَى اليسار إلى تَبَادُلُه فِيمَا بَيْنَها، بِهَدَف اِكْتِشَاف أخطائها، وَتَقْوِيمِهَا؟

مَا هُوَ النَقد السِيَاسِي؟

كَيْفَ نُعَرِّفُ النَّقْد السياسي ؟ في جَوْهَرِه، النَّقْد السياسي هو بَحْثٌ عن الحقيقة الثورية، بِهَدَف إِبْرَازِهَا، وَنَشْرِهَا، وَتَثْبِيتِهَا، وَمُنَاصَرَتِهَا، وَتَطْبِيقِهَا. وكلّ نَقْد سِيَاسِي لَا يَكْشِف الحقيقة الثورية، أو لَا يُوَضِّحُها، أو لَا يُدَافِع عنها، فَهُوَ لَيْسَ بِنَقْد جَيِّد. بَل قَد يَتَحَوَّل هذا "النقد" النَّاقِص إلى مُغَالَطَات.

وَمِن الطَّبِيعِي أن يَفْضَحَ النَّاقِد السياسي الْأَشْخاصَ الإِنْتِهَازِيِّين، أو المُخادعين، أو المُناصِرِين لِلْاِسْتِغْلَال، أو لِلاستبداد. كما أنه مِن الطَبيعي أن يكون النَاقِد السياسي شَخْصًا مُتَنَازَعًا حَوْلَه، بين مَن يُقَدِّرُونَه، وَمَن يَكْرَهُونَه.

ولماذا يجب على المُناضلين أن يَهْتَمُّوا بِالنَّقْد، وَأن يَتَلَافُوا المَدْح؟ لأنّ الْمَدْح هُو عَكْس النَّقْد. فَإذا كان المَدْح يُفْرِطُ في وَصْف الْإِيجَابِيَّات، أو يَخْتَلِقُها، أو يُضَخِّمُها، أو يُعَظِّمُها، فإن النَّقْد يُبْرِزُ النَقَائِص، وَيَكْشِفُ الأَخْطَاء، وَيَذْكُر السُبُلَ لِتَصْحِيحِهَا. وَتُوجَدُ بِالضَرُورة في كلّ شخص بَشَري إِيجَابِيَّات وَسَلْبِيَّات. وَكُلّ مَدْح يُرَكِّزُ على إِظْهَار الإِيجَابِيَّات، فإنه يُشَجِّعُ الشَّخْصَ المَمْدُوحَ على الغُرُور. بَيْنَما النَّقْد الجَيِّد يُوقِظُ الْإِنْتِبَاه، وَيَحُثُّ على التَوَاضُع، وعلى وَاجِب التَحَسُّن. وحينما نُرَكِّزُ في النَّقْد على السَّلْبِيَّات المَوْجُودَة في أَفْكَار، أو في سُلُوكِيَّات، شخص مُحَدَّد، فهذا النَّقد لَا يَعْنِي، وَلَا يُبَرِّر، نُكْران ما يُوجد في هذا الشَّخْص مِن إِيجابِيَّات.

مِثال النَقد السِيَاسِي؟

لِنَبْدَأ الآن بِتَنَاوَل مِثال مَلْمُوس في مَجَال النَّقْد السيّاسي. وَلِنُبْرِز أَهَمَّ إِنْتِقَاداتِه، وَمَنَاهِجه. وَمِن بعد، سَنَعْرِضُ الرُّدُودَ على هذا النَّقْد، ثُمّ الأَخْطَاء المَنْهَجِيَة الوَارِدَة في هذه الرُدُود.

2.1- في يوم الاثنين 6 يونيو 2016، نَشَرَ المناضل عبد الله الحريف (وهو من "حزب النَّهْج")، مَقَالًا تحت عنوان «نَقْد بعض الأفكار الخاطئة». وحاولَ عبد الله الحريف في هذا المقال الإِجَابَة على السُؤال : «لماذا لا نتقدّم بما فيه الكفاية كماركسيين في إنجاز المهام الاستراتيجية». (وَلِمَنْ يَرغب في الإِطِّلَاع على مقال عبد الله الحريف، يُمكن أن يَجِدَه في مُدَوَّنَة "نُقَّاد"، على صفحة "نُقَّاد مُتَنَوِّعُون"، فَصْل "نَقْد قِوَى اليسار"، (نقاد-متنوعون). وتناول عبد الله الحريف عِدّة قضايا في هذا المقال. منها مثلًا : وحدة اليسار، وبناء الجبهة، والمشاركة في الانتخابات، وقضية الصحراء الغربية، إلى آخره.

وَعَرَض عبد الله الحريف في هذا المقال بعض الانتقادات التي وَجَّهَها إلى بعض قِوَى اليسار (مثل حزب الاشتراكي الموحّد، وحزب الطليعة الدِّيمُوقْرَاطِي الاشتراكي، و حزب المؤتمر الاتحادي، و"فِيدِيرَالِيَة اليَسار الدِّيموقراطي"). وطرح عبد الله الحريف، ضِمْنَ اِنْتِقَاداته، أن قِوَى "فيديرالية اليسار" تَلْتَزِمُ بِالمُشاركة في «الانتخابات ... [التي] تُكَرِّسُ شَرْعِيَة المَخْزَن» (والمَقْصُود بِـ "المَخْزَن" في المَغْرب هو النظام السياسي المَلَكِي القائم فيه). وَتُطَالِب أَحْزَاب "فيديرالية اليسار" بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة»، وَتُريد «تَحْقِيقَهَا مِن خلال تَوَافُقَات فَوْقِيَة مع المَخْزَن»، بَدَلًا مِن العَمَل على إِسْقَاطِ هذا النظام السياسي بِثَوْرَة مُجتمعية. لأن التَجْرِبَة أَكَّدَت أن هذا النظام السياسي «غَير قابل للإصلاح». وطرح الحريف أن مُشاركة "حزب الاتحاد الاشتراكي" في «التَنَاوُب» على الحُكُومَة (بين سنتي 1998 و 2002) «أَدَّى إلى إِضْعَاف اليسار». وَاتَّهَمَ الحريف قِوَى "فيديرالية اليسار" بِـ «الذَّيْلِيَة التامّة لمواقف ومُبادرات المَخْزَن» في مَجَال قَضِيَة الصحراء الغَرْبِيَة. وكتب الحريف «أن "حِزب المُؤتمر الوطني الاتحادي" [هو] مُجَرَّد واجهة لِنَقَابَة "الكُنْفِيدِيرَالِيَة الدِّيمُوقراطية لِلشُّغْل"، التي تلتزم قيادتها بالسِّلْم الاجتماعي، على حِسَاب الطبقة العاملة... وَتَتَوَاطَؤ مع المَخْزَن». وقال الحريف أن «قيادة "الحزب الاشتراكي الموحد" تُؤَكِّد أنها ليست ضِدَّ المَخْزَن». أَيْ أنّ "الحزب الاشتراكي الموحد" يَعْمَل بهدف إصلاح النظام السياسي مِن دَاخل مُؤَسَّسَاتِه، وَيَرْفُض المُشاركة في أَيّ نضال يهدف إلى إِسْقَاط النظام السياسي. وقال الحريف أن «خَطًّا سِيَّاسِيًا يَمِينِيًّا... يُهَيْمِنُ داخل "حزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي"... [وداخل] "فيديرالية اليسار الديموقراطي"». وَنَدَّدَ الحريف بِـ «أَوْهَام التَوَافُق مع المَخْزَن». وَفَسَّر الحريف تلك المَوَاقِف بِوُجُود، أو بِفِعْل، فِئَات طَبَقِيَة، هي مثلًا «أَرِسْتُوقْرَاطِيَة عُمَّالِيَة تَسْتَفِيد مِن الرّيع النَقَابِي... وَمُحَامُون يَستفيدون مِن فُتَات النظام... وَمُقَاوِلُو المُجتمع المدني الدين اِغْتَنَوا بِفَضْل دَعم الدولة... والفِئَات العُلْيَا مِن البُورجوازية الصُغْرَى... ومُحامون، وأطبّاء، ورجال التعليم العالي...».

2.2- وعلى خِلَاف رُدُود بعض المناضلين، ليست هذه الآراء السَّابِقَة (التي طَرحها عبد الله الحَريف) شَتْمًا، وَلَا إِهَانَةً. وَلَا تُوجَد هذه الآرَاء عِنْد عبد الله الحريف وحده. وَلَيْسَت اِكْتِشَافَات جَدِيدة. وَإِنَّمَا هي آرَاء، أو قَنَاعَات شَائِعَة نِسْبِيًّا، وَمُنْتَشِرَة مُنذ عُقُود، لَدَى بَعْض يَسَار "حزب الاتحاد الوطني لِلقُوَّات الشعبية"، وَلَدَى نِسْبَة هَامَّة مِن المُناضلين الماركسيّين اللِّينِينِيّين، والماركسيّين الثوريين في المغرب. وَلِتَوْضِيح ذلك، يُمكن أن نَكْتَفِيَ بِعَرْض مِثال قَضِيَة سِيَاسية وَاحِدَة، مُخْتَلَف حَوْلَها، هي قَضِيَة «الْإِعْتِقَاد بِإِمْكَانِيَة إِصْلَاح النظام السياسي القائم في المغرب مِن دَاخِل قَوَانِينِه وَمُؤَسَّسَاته». حيثُ أن أَسَاس المُطالبة بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة» في المغرب، هو بِالضَّبْط «الْإِعْتِقَاد بِإِمْكَانِيَة إِصْلَاح النظام السياسي القائم في المغرب، مِن دَاخِل مُؤَسَّسَاته»، وذلك عبر الانتخابات العامّة، والبرلمان، والجماعات المحلّية، الخ.

2.3- وَمُنْذُ ظُهُور "حَرَكَة 20 فبراير" في سنة 2011، أَحَسَّ "حزب الاشتراكي المُوَحَّد" أن جُزْءًا مُتَزَايِدًا من الحركات النضالية الجماهيرية تَطْمَحُ إلى «إِسْقَاط النِظَام السياسي» القائم في المغرب. فَتَحَوَّل هذا الحزب إلى نَوْع مِن «رِجَال المَطَافِئ». وَأَخَذ "حزب الاشتراكي المُوحد" يُدَافِعُ بِشِدَّة على «ضَرُورة إِبْقَاء كلّ التَحَرُّكَات النِضَالية الجَارِيَة في المَغرب تَحْتَ سَقْف المُطَالَبَة بِالْمَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة». وَنَظَرًا لِأَهَمِيَة الدَّوْر المُفْرِمِل (freinant) الذي كَانَت، وَمَا زَالت، تَقُومُ به نَظَرِيَة «سَقْف المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة» تُجَاهَ النضالات الجماهيرية المُشتركة، نَحْتَاج هُنَا إلى الإشارة، وَلَو جُزْئِيًّا، لِبَعض الانتقادات المَنْهَجِيَة المُوَجَّهَة إلى أنصار أُطْرُوحَة المُطَالَبَة بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة».

وَيَثِقُ أَنْصَار المُطَالَبة بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة» في إِمْكَانِيَّة إِقْنَاع المَلِك بأن يتحوّل مِن «مَلِك يَسُود وَيَحْكُم»، إلى «مَلِك يَمْلُك وَلَا يَحْكُم». وَيَصِفُون كُلَّ مَن لَا يُوَافِق على

هذه الأُطْرُوحَة بِكَوْنِه «جَذْرِيًّا»، أو «مُتَشَدِّدًا»، أو «يَسَارِيًّا مُتَطَرِّفًا»، أو «إِرْهَابِيًّا». وَيَعْتَقِدُ أَنْصَار مَطْلَب «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة» أنهم قَادِرون على إِقْنَاع المَلِك بِأَنْ يَتَطَوَّرَ مِن «مَلِك اِسْتِبْدَادِي يَحْتَكِرُ كل السُّلُطَات»، إلى «مَلِك دِيمُوقْرَاطِي لَا يُمَارِسُ أَيّة سُلْطَة سياسية في البلاد». وَيَظُنُّ أَنْصَار مَطْلَب «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة» أنه بِإِمْكَانِهم تَحْوِيل هذا «النِظَام المَلَكِي المُطْلَق» إلى «مَلَكِيَة دِيمُوقْرَاطِيَة»، فَقَط بِوَاسِطَة الخِطَابَات السِيَاسِية، وَبِوَاسِطَة المُطَالَبَة السِلْمِيَة وَحْدَهَا، وَبِوَاسِطَة الْإِقْنَاع المَنْطِقِي وَحْدَهُ. وهذا تَصَوُّر غَرِيب لِلصِرَاع الطَبَقِي. لكن هذا الاعتقاد هو وَهْمٌ هَائِل. وَلِمَاذَا؟ لأن النظام السياسي القائم في المغرب، بُنِيَ بِالضَبْط بِطَرِيقَة خَاصَّة وَدَقِيقَة، لِكَيْ يَسْتَحِيلَ على كُلّ الفَاعِلِين السياسِيِين تَغْيِير هذا النظام السياسي مِن داخل قَوَانِينِه وَمُؤَسَّسَاتِه. وَلِأَنَّ هذا النظام السياسي يُدْرِكُ أن الكَثِير مِنْ التطورات التي تَحْدُثُ، سَوَاءً دَاخِل شَعْب المغرب، أم في الوضع العالمي، تَضَعُطُ عليه بِقُوَّة في اِتِّجَاه تَغْيِير، أو تَجَاوُز، هذا النَوْع مِن النظام السياسي القَدِيم. وَلِأَنَّ هذه التَهْدِيدَات المُتَوَاصِلَة (الدَاخِلِيَة والخَارِجِيَة)، تَدْفَعُ دَوْلَةَ هذا النظام السياسي إلى التَرْكِيز على هَدَف أَسَاسِي وَاحِد، هو العَمَل على ضَمَان اِسْتِمْرَارِيَة وُجُودِه، بِكُلّ الوَسَائِل المُمْكِنَة (بما فيها التَرْكِيز على القَمْع، وَإِرْهَاب الدَوْلَة، وَالتَحَالُف التَبَعِي مع الإِمْبِرْيَالِيَّات الغَرْبِيَة، ومع أَمْرِيكَا، ومع إسرائيل، ومع السَّعُودِيَة، لِاسْتِجْدَاء حِمَايَتِهِم). وَدِفَاع هذا النظام السياسي عن شِعَار «الجَمْع بَيْن الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» هو دَلِيل على أنّ هذا النظام السياسي يَعِي أنه يُجَسِّدُ «مُفَارَقَة تَارِيخِيَة» (anachronisme)، وَأَنَّه يَعُود إلى عُصُور عَتِيقَة وَمُتَجَاوَزَة. وَلِأَنّ التاريخ الحديث لِلْمَغرب، يُؤَكِّدُ هُو نَفْسُه، أن الاِعْتِقَاد بِإِمْكَانِيَة إِصْلَاح هذا النظام السياسي، مِن داخل مُؤَسَّسَاتِه، هو خَطَأ سياسي قَاتِل. وَمُجْمَل الأَجْيَال المُتَوَالِيَّة مِن المُعَارِضِين السياسِيِّين، الذين اِرْتَكَبُوا هذا الخَطَأ، أَدَّى بهم إلى التَعَرُّض لِلتَّرْوِيض (من طرف هذا النظام السياسي)، ثُمّ إلى التَهْمِيش، ثُمّ إلى الاِنْحِلَال، ثُمّ إلى التَلَاشِي. وَمُنْذ قُرابة سنوات 1960، رَاجَت تَحْذِيرات بعض القَادَة المناضلين الثوريّين البَارِزِين (مثل الشَهِيد المهدي بن بركة، ثُمّ الشَهِيد عمر بنجلّون، ثُمّ أحمد بنجلون، الخ). وكانت تَحْذِيرَات هؤلاء الزُعَمَاء الثوريّين تُنَبِّهُ إلى أن هذا الاعتقاد (بِإمكانية تَغْيِير هذا النظام السياسي مِن دَاخِل مُؤَسَّساته) هُو وَهْم مُخَدِّر.

وَرَغْم هذه التَحْذِيرَات، فإن العديد من الشَخْصِيَّات، والمُثَقَّفِين، والقِوَى السياسية المُعَارِضَة، المُعْتَدِلَة، أو التَقَدُّمِيَة، ظَلُّوا كُلُّهُم، أو مَا زَالُوا، يُؤْمِنون بهذا الوَهْم المُنَوِّم. كَأَنَّ هذا النظام السياسي اِسْتَطَاعَ «التَلَاعُب» (manipulation) بِعُقُول هؤلاء الأَشْخَاص السياسيين، المُؤْمِنِين بِأُطْرُوحَة «إِمْكَانِيَة تَغْيِير النظام السياسي مِن دَاخِل مُؤَسَّساته». وَلَوْ أنّ التَارِيخ الحَدِيث لِلمغرب يُثْبِتُ، في كلّ مَرّة، أَنّ كُلّ حِزْب سِيَاسِي آمَنَ بِـ «إِمْكَانِيَة إصلاح النظام السياسي القائم في المغرب، مِن دَاخِل مُؤَسَّسَاتِه»، اِنْتَهَى به الأمر إلى التَدْجِين، وَالضُعْف، وَالتَشَرْذُم، ثُمّ الْإِنْدِثَار.

وَبَدَلًا مِن أن تَقُوم هذه الأَحْزَاب المُعْتَدِلَة، أو التَقَدُّمِيَة، أو «الاِشْتِرَاكِيَة»، بِتَغْيِير طَبِيعَة هذا النظام السياسي المَلَكِي المُطْلَق، فإن هذا الأَخِير هو الذي نَجَحَ، في كُلّ مَرَّة، في تَغْيِير هذه الأَحْزَاب إلى أحزاب مَلَكِيَة، مُدَجَّنَة، وَخَاضِعَة، وَمُخَدِّرَة، وَمُنَوِّمَة. وَتَتَحَوَّلُ هذه الأحزاب المُعْتَدِلَة هي نَفْسُهَا إلى «مُخَدِّر» لِبَاقِي مُوَاطِنِين الشَعْب الطَّامِحِين إلى التَغْيِير. وقد كان هذا هو مَصِير العديد من الأحزاب التَقَدُّمِيَة القَدِيمَة، مثل "حزب الاتحاد الوطني لِلقُوَّات الشعبية"، و"حزب الاتحاد الاشتراكي"، و"حزب التقدّم والاشتراكية"، و"حزب العَدَالة والتنمية" الإِسْلَامِي، إلى آخره. وَسَيَكُون هذا المَصِير، هُو أَيْضًا، مُنْتَهَى كل حِزْب آخر حَلُمَ بِـ «إِمْكَانِيَة إِصْلَاح النظام السياسي مِن داخل مُؤَسَّساته». وَسَيَنْطَبِقُ نَفْس المَصِير على "الحزب الاشتراكي المُوَحَّد"، وَعلى "فِيدِيرَالِيَة اليَسَار الدِيمُوقراطي"، إلى آخره.

وَيَتَنَاسَى كَثِيرون مِن بَيْن هؤلاء المُنَاصِرين لِمَطْلَب «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة»، أنه حِينَمَا أَرْسَل عبد السَّلَام يَاسِين، زَعِيم حِزب "جَمَاعَة العَدْل والإِحْسَان" الإِسْلَامِيَة، في سنة 1994، كِتَابًا إلى الملك الحَسَن الثَّاني، يُحَاوِل فيه إِقْنَاعَه بِضَرُورَة إِصْلَاح نِظَامِه السِيَاسِي، رَدَّ عليه الملك الحسن الثاني بِسِجْنِه في مُسْتَشْفَى لِلْأَمْرَاض العَقْلِيَة.

كَأَن المَلِك الحسن الثاني يَقُول لِـ عبد السلام يَاسِين: «مَطَالِبُك تُثْبِتُ أَنَّك أَحْمَق» ! وَلَوْ بَقِيَ الملك الحسن الثاني حَيًّا، لَكَان بِالْإِمْكَان أن يُنَبِّهَ به الأَمْر إلى أن يَقُولَ الشَّيْءَ نَفْسَه إلى الأَنْصَار الجُدُد المُطَالِبِين بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة».

وَكُلّ الأحزاب السياسية بالمغرب التي حَاوَلَت تَطْبِيق أُطْرُوحَة «إِمْكَانِيَة تَغْيِير النظام السياسي القائم مِن داخل مُؤَسَّساته»، والتي شَارَكَت مِرَارًا في مُمَارَسَة سُلُطَات الحُكُومَة، مِن خِلَال تَرَأُّس عِدَّة وِزَارات حُكُومية، وَعَلَى اِمْتِدَاد عِدَّة عُقُود، مثل "حزب الاتحاد الاشتراكي"، و"حزب التَقَدُّم والاشتراكية"، الخ، لم تَسْتَطِع تَغْيِير أَيّ شَيْء ذِي أَهَمِّيَة في طَبِيعَة هذا النظام السياسي القائم في المغرب. وَلَمْ تَقْدِر على تَقْلِيص لَا اِسْتِبْدَادِه، وَلَا قَمْعِه، وَلَا فَسَادِه، وَلَا تَبَعِيَّتِه لِلْإِمْبِرْيَالِيَة وَلِلصَهْيُونِيَة. بَلْ على عَكْس ذلك، النظام السياسي القائم في المغرر هو الذي اِسْتَغَلَّ مُشاركة هذه الأحزاب (في مُحَاوَلَة تَغْيِيره مِن الدّاخل)، وَحَوَّلَ قَادَة وَأَعْضَاء هذه الأحزاب إلى «خُدَّام لِلنِظَام السِيَاسِي»، وَجَعَلَهُم طَيِّعِين، وَمُسَخَّرِين لِخِدْمَتِه.

وَبعض الأحزاب في المغرب، المُتَمَوْقِعَة في وَسَط الطَّيْف السِيَاسِي، أو في يَمِين اليسار، مَا زَالَت تُدَافِعُ بِحَمَاس أَعْمَى عن أُطْرُوحَة «إِمْكَانِيَة تَغْيِير النظام السياسي مِن داخل مُؤَسَّساته». وَمِن المَفْهُوم أنه في حالة إذا مَا آمَنَتْ هذه الأحزاب بِأُطْرُوحَة مُعَاكِسَة، فَإِنَّها سَتُصْبِحُ طَبْعًا مُجْبَرَة على خَوْض النضال الثوري الجَذْرِي، مِن أجل إِسْقَاط النظام السياسي. بَيْنَمَا هي لَا تَقْدِرُ على تَحَمُّل المَخَاطِر الناتجة عن خَوْض صِرَاع وُجُودِي وَحَاسِم مع هذا النظام السياسي، الذي بَنَى نَفْسَه، وَعَنْ وَعْي، على أَسَاس بَطْش وَإِرهاب الدولة، ضِدَّ كُلّ المُعَارِضِين والمُخَالِفِين. وَمُجْمَل هذه القِوَى السياسية الإصلاحية تَخَاف مِن القَمع السياسي، وَلَا تَقْدر على تَحَمُّل تَبِعَاتِه. وَلَا تَقْبَل التَضْحِيَة بِأَيّ جُزْء مِن رَفَاهِيَتِهَا. خاصّةً وأن التَجَارِبَ النضالية السَّابِقَة، تُبَيِّنُ أنّ عَشَرَات الْآلَاف من المناضلين الثوريّين في المغرب، تعرّضُوا لِلْإِعْتِقَال، أو لِلْإِخْتِطَاف، أو لِلتَّعْذِيب، أو لِلاغْتِيَال، أو تَوَصَّلُوا بِطُرُود مُلْغُومَة، أو أُلْصِقَت بهم تُهَم جِنَائِيَة لِتَبْرِير إِعْدَامَهُم، أو لِإِقْبَارَهُم في السِجْن خلال سنوات طَوِيلَة جِدًّا. وَتَارِيخ الخُرُوقَات الجَسِيمَة لِحُقُوق الإنسان في المَغْرب يَشْهَد على ذلك.

2.4- لِنَعُدْ الآن إلى مِثَال نَقْد عبد الله الحريف. وَلِنَسْتَعْرِض كَيْفَ كان رَدُّ الأَشْخَاص المُنْتَقِدِين على عبد الله الحريف. لَقَدْ رَدَّ عَلى اِنْتِقَادَات عبد الله الحريف بعضُ المناضلين من "حزب الطليعة الدِيمُوقْرَاطِي الاِشْتِرَاكِي" (منهم السَّادَة : مُنْعِم أوحَتّي، ومحمد بُوبْكَر، وادريس غَازِي)، وَهَجَمُوا عليه كشخص، مُستعملين عبارات قَدْ تَحتوي على قَدْر مُعيّن من الْإِنْتِقَام، أو العَدَاوَة، أو الاحتقار، أو الإهانة، أو الاستهجان. حيثُ وَصَفَ مُنعم أُوحَتّي عبد الله الحريف بِـ : «الضَّحَالَة»، و«القُصُور في التَفْكِير»، و«الصِبْيَانِيَة»، و«التَيَاسُر».

وَوَصَفَه محمد بوبكر بِـ : «أَلْزْهَايْمَر السِيَاسي»، وَ«التَّعْوِيض عَن النضال». وَوَصَفَه ادريس غازي بِـ : «عَرْقَلَة الوحدة»، و«التَشْوِيش على المُؤتمر الاندماجي» لِـ "فِيدِيرَالِيَة اليَسَار الديموقراطي".

2.5- كلّ هؤلاء المناضلين (المذكورين سابقًا) معروفون، وكلهم عزيزون علينا، ونُكِنّ لهم جميعًا التَقْدِير والاحترام. لكن نَوْعِيَة النَّقد الذي تَبَادَلُوه فيما بينهم، يحمل شُحْنَات من القَسَاوَة، أو العَدَاوَة، أو الإِهَانَة، أو الإِنْتِقَام، أو الاِحْتِقَار، أو القَدْح، أو الطَّعْن. وَحَمَلَ ذلك النَقْد المُتَبَادَل تَصْنِيفَات جَارِحَة، أو مُهِينَة. وهذا الأسلوب في النَقْد، يَخْلُق حَزازات ذَاتِيَة، أو عَداوات طَوِيلَة، أو دَائِمَة. وَنحن جميعًا في غِنًا عن هذه المُشَاحَنَات الذَّاتِيَة. لكن هذه الحَادِثَة، تُوَفِّر لنا مُناسبة ثَمِينَة، لِكَيْ نُنَاقِش مُشْكِل نَوْعِيَّة النَقْد الذي نُمارسه. فَنَتَسَاءَل : مَا هو نَوْعُ النَّقْد الذي تَحْتَاجُ قوى اليسار بالمغرب إلى تَبَادُلِه فيما بينها ؟ وما هي المَقَايِيس المَرْجُوَّة في أيّ نَقْد، لكي يَكون مُتَحَمَّلًا، أو مَقْبُولًا، أو بنّاءً ؟ فَأُدْلِي بالأُطْرُوحَات المَنْهَجِيَة التالية:

أَسَالِيب النَّقد المسِيئَة

3.1- مِن بين مُعضلاتنا السياسية، فيمُجتمعنا ذِي التَقَالِيد الإسلامية (في المغرب، وفي عُموم العالم النَّاطِق بِالعَرَبية، وفي العالم الإسلامي) أن تَقَالِيد حَضَارَتِنَا الإِسْلَامِيَة، تَجْعَلُنَا غَيْرَ مُتَعَوِّدِين على تَبادل النَّقْد (الفَلْسَفِي أو السِيَاسِي). فَقَد يَقُول كَثِيرُون مِن المُواطنين «نَعَم، النَّقْد عَادِي، وَمَشْرُوع، بَل ضَرُورِي»! لكن حينما يَتَعَرَّضُون هُمْ أَنْفُسُهُم لِلنَّقْد العَلَنِي، يَقْلَقُون فَوْرًا، وَيَرْفُضُون هذا النَّقْد في شُمُولِيَتِه، وَيَحْتَجُّون عليه. وَيُجِسُّون بِالنَّقْد العَلَنِي كَإِهَانَة، أو كَتَهَجُّم عَدَائِي على شَخْصِيَّتِهم.

3.2- حينما يُقْدِمُ مُواطن عَادِي على مُمارسة النَّقد، فإنه يَمِيل إلى اِسْتِعْمَال هذا النَّقْد بِأَسَاليب ذَاتِيَة، أو اِنْتِقَامِيَة، أو فَظَّة، أو خَالِيَة مِن اللَّبَاقَة، أو فَارِغَة مِن الكِيَاسَة، أو خَاوِيَة مِن الأَدَب، أو مِن التَأَنِّي. فَتَحْدُثُ صِدَامَات، أو عَدَاوَات، بين المُنْتَقِد والمُنْتَقَد.

3.3- تُوجَدُ بعض الظَوَاهِر الغَرِيبَة. وَمِن ضِمْن هذه الظَوَاهِر الغَرِيبَة، أن مُختلف قِوَى اليسار (في المغرب) تَمِيلُ دَائِمًا إلى تَجَاهُل بعضها بعضًا، وَلَوْ أنها تَتَشَابَهُ جُزْئِيًّا في طُموحاتها السياسية، وَلَوْ أنها تَرْغَبُ في تَحْقِيق أهداف نضالية مُتَقَارِبَة، ولو أنها تُلْتَقِي، مِن فَتْرَة لِأُخْرَى، في ميدان النضالات الجماهيرية المُشْتركة. وهذا التَجَاهُل المُتَبَادَل فيما بين فَاعِلِين سِيَّاسِيِّين مُتَشَابِهِين، يَضُرُّ بهؤلاء الفاعلين. حيثُ يَعْنِي التَجَاهُل المُتَبَادَل أن كُلّ فَاعِل يَجْبَا حَيَاتَه الخَاصَّة كَأَنَّ الفَاعِل الآخر، المُشَابِه له، أو المُخْتَلِف عنه، أو المُنَاقِس له، أو النَّقِيض له، غَيْر مَوْجُود. وهذا السُّلُوك هو مِن بَيْن الأَسْبَاب التي تَجعل النَّقْد السِيَّاسِي (المَكْتُوب، وَالعَلَنِي)، المُتَبَادَل فيما بين قِوَى اليسار، نَادِرًا جِدًّا، أو مُنْعَدِمًا. حيثُ مِن الطبيعي أن لَا يَنْتَقِد أَيُّ طَرَفٍ الأَطْرَافَ الأخرى التي يَتَجَاهَلُهَا.

3.4- لا تَعمل قِوَى اليسار بِمَا فيه الكِفَايَة من أجـــــل

تَـقْـلِيص، أو إزالة، خِلافاتها الفكرية، أو النَظَرِيَة، أو السياسية. ولا تَرْضَى مُكوّنات اليسار بأن تَتحاور مع قِوَى اليسار الأخرى، التي تُخَالفها، أو تُـنَـافِسُهَا.

هكذا كان حزب الاستقلال (المُحافظ) يتجاهل حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية (الذي إنْشَـقَّ عن "حزب الاستقلال"). ثُمّ إنْشَـقَّ "حزب الاتحاد الاشتراكي" عن "حزب الاتحاد الوطني للقُوات الشَّعبية". ثُمّ تَسَلْسَلَت الإنْشِـقَاقَات السياسية. وَهكذا كان حزب الاتحاد الاشتراكي يَتجاهل هو أيضًا كل الأحزاب، والتَّنْظِيمَات، والتيّارات، التي سَبَـقَ أن إنْشَـقَّـت عنه. وهي كثيرة. وَأصبح هُو نَفْسُه مُتَجَاهَلًا مِن طرف مَن إنْشَـقَّ عنه، أو مَن إخْتَلَفَ معه. وَقَد كانت التيّارَات المُنْشَـقَّة مُتَنَوِعَة، وَمُتَـعَـدِدَة، وَمُتَتَابِعَة. وَمِن ضِمْنِهَا حزب الطليعة الديموقراطي الاشتراكي ، الذي كان هو أيضًا يتجاهل تنظيمات سياسية مثل مُنَظَّمَة 23 مارس ، ومُنَظَّمَة إلى الأمام ، وَمُنَظَّمَة الوفاء للديمقراطية . وكانت الأحزاب الثلاثة المُـكَـوِّنَة لِـ فيديرالية اليسار الديموقراطي تتجاهل، هي أيضًا، حزب النهج . إلى آخره. وَبَدَلًا مِن أن تَتَـفَـاعَل قِوَى اليسار فيما بينها، تَتَجَاهَلُ بَـعْـضَهَا بَـعْـضًا. كَأَنَّ القِوَى اليَسارية الأُخْرَى التي تَخْتَلِفُ عنها، أو تُنَافِسُهَا، هي غَير مَوْجُود. وهذا المَنْهَج يَضُرُّ بِـقِـوَى اليسار، بَدَلًا مِن أن يَنْـفَـعَـهَا.

3.5- كان تَبَادُل النَّـقْد السِيَاسي المَكْتُوب، والجِدّي، والمُـعَـمَّـق، والمَسْؤُول، فيما بين هذه التيّارَات، والتَنْظِيمَات، والأحزاب، إمَّا نَادِرًا، أو مُنْـعَدِمًا. وإذا ما وُجِـدَ هذا النَّـقْد، يَكُون في مُعْظَم الحالات جَافًّا، أو ذَاتِيًّا، أو فَظًّا، أو عَدَائِيًّا. زِدْ على ذلك أن الأحزاب، والتنظيمات، والتيّارَات، المَـعْنِيَة بذلك النَّـقْد السِيَاسِي (النَّادِر)، تَتَجَاهَلُه، وَلَا تَرُدُّ عليه، وَلَا تَـعْبَأُ به. ولماذا ؟ لأن بعض الفاعلين السِيَاسِيّين المُنْتَقَدين، لَا يَـقْـدِرُون على التَـعَامُل بِمَوْضُوعِيَة، أو بِمِهَنِيَة، مع النَّـقْد السياسي العَلَنِي المُوَجَّه إليهم. أو لأنهم يَظُنُّون أن الرَّد المَوْضُوعِي، أو الدَّقِيق، على ذَلك النَّـقْد، «سَيُضِيف إلى الشّخص المُنْتَقِد أَنَـهَمِيَة لَا يَستحقُّها». أو لأنهم يَـعْـتَـقِـدُون أنهم يَـقْـدِرُون على التَخَلُّص من الإنْتِقَادَات المُوَجَّهة إليهم عَبْر تَجَاهُلِهَا. لكن النَّـقْد السِيَاسي الجَيِّد يَبْـقَـى يُلَاحِقُهُم بِلَا نِهَايَة.

ويُمكن تَأْوِيل هذا التَجَاهُل المُتَبَادَل فيما بين قِوَى اليسار، بِمُيُول كلّ واحدة مِن بَيْن هذه القِوَى نحو الهَيمنة، أو الإسْتِفْـرَاد بِالتَّأْثِير، أو بِالسُلْطَة. ومن النَّادر جدًا أن تتبادل قِوَى اليسار بالمغرب نَـقْدًا مُعَمَّقًا، وَمَـكْتُوبًا، وَعَـلَنِيًّا.

3.6- في نَـفْس الوَقت الذي تَتَجَاهَلُ فيه القِوَى السِيَاسية بالمغرب النَّـقْد المُوَجَّه إليها، تُبَالِـغُ هذه القِوَى في تَـقْدِير خِلافاتها النظرية، أو السياسية. وَتَـعْتَبِرُ هذه الخِلَافَات «كَبِيرة جِدًّا» إلى دَرَجَة أنها تُحَوِّلُهَا إلى مُبَرِّر كَافِيّ لِتَجَاهُل، أو لِمُـقَاطَـعَة، القِوَى السياسية الأخرى التي تُخَالِفُهَا في الآرَاء. أو تُحَوِّل هذه الخِلَافَات إلى مُبَرِّر لِـرَفْـض خَوض النضالات الجماهيرية المُشتركة مَعَ مَن يُخَالِفُهَا.

وَتُبَرِّر قِوَى اليسار الحَزازات القَوِيَّة القائمة فيما بينها بِوُجود «خلافات سياسية كَبِيرَة»، أو بِـ «تَـفَاوُتَات عَقائدية جَوْهَرِيَة» فيما بينها. لكن قِوَى اليسار لَا تُوَضِّح لنا، بشكل كِتابي، وَمُعَمَّق، وَدَقِيق، لماذا تختلف في قَنَاعاتها السِيَاسية. (وَإذا مَا كان مُبرّر الإمْسَاك عن هذا التَوْضِيح يَنْبُـعُ عن الاحتيّاط مِن تَجَسُّس الأجهزة القَمعية، فَيَنْبَـغِي، في هذه الحالة، على قوى اليسار، أن تَبْتَـكِرَ قَنَوَات مُرْضِيَة في مَجَال التَوَاصُل الآمِن، لِتَبْلِيغ هذه الشُرُوحَات، أو الخِلَافات، أو الانتقادات، إلى المناضلين المَـعْنِيّين بها).

3.7- ظلّت قوى اليسار تَـقْتَصِر على النَّـقد الشَّفَوِي، وغير المَنْهَجِي، وذلك حَصْرِيًّا خلال جَلسات داخلية، أو في إطَار عَلَاقَات شَخصيّة أو خُصوصية. وَتَتَلَاقَى عَادَةً مُمارسةَ النَّـقْد السياسي البَيْـنِـي بِشَـكل مَـفْـتُوح، أو عَلَنِي.

3.8- مِن بَيْن الظَوَاهِر الغَرِيبَة في مُجتمعنا، أن بعض الأشخاص يَرْفُضُون الإطِّلَاع على بعض الأَفْـكَار، أو الإنْتِـقَادات، أو المَقَالَات، أو الكُتُب، في مَيَادِين مُـعَيَّنَة مِن المَـعْرِفَة، وذلك خَوْفًا مِن التَأَثُّر بها. وَيَخْشَوْنَ أنه، في حالة إذَا مَا إطَّلَعُوا على هذه الأَفْكَار، أو تَأَثَّرَت عُـقُولُـهُم بها، فَمِنَ المُمْكِن أن لَا يَـقْدِرُوا بَعْدَ ذلك على التَخَلُّص من تَأْثِير تِلْك الأَفْكَار؛ وَمِن المُمكن أن يُصْبِحُون مُشَابِهِين لِأَشْخَاص يُـكِـنُّـون لهم، بشكل مُسْبَـق، الكَرَاهِيَة، أو الإحْتِـقَار، أو العَدَاء. وَيُفَضِّلُ أَوْلَائِك الأشخاص أن يَبْـقُوا جَاهِلِين (لِتِلْكَ الميادين المُحَدَّدَة مِن المَـعْرِفَة) على أن يَتَأَثَّرُون بِتِلْكَ الأَفْكَار التي يَـعْـتَـبِـرُونها مُسْبَـقًا «سَيِّئَة»، أو «مُنْحَرِفَة»، أو «مُتَخَلِّفَة». وَكَيْفَ يُمْكِنُهُم أن يَـعْرِفُوا أنّ تِلْك الأَفْكَار هي فِعْلًا «سَيِّئَة»، أو «مُنْحَرِفَة»، أو «مُتَخَلِّفَة»، بَيْنَمَا هُم يَرْفُضُون مُسْبَـقًا الإطِّلَاعَ على مَضْمُونِهَا أو تَـفَاصِيلِهَا ؟ وفي نَـفْس الوَقْت، يُرِيدُون أن يُثْبِتُوا، في «النَّـقْد»، وفي «النِـقَاشَات»، و«الصِرَاعَات السياسية»، أن تِلْكَ الأَفْكَار هي «خَاطِئَة»، وَ«سَيِّئَة»، وَلَوْ أنهم يَرْفُضُون مُسْبَـقًا الإطِّلَاع على تَـفَاصِيلِهَا !

3.9- نَمَاذِج كثيرة من «النِـقَاشَات»، أو «الصِرَاعَات السياسية»، مثل تلك التي تَحدث في «بَاب الدَّرْب»، أو في المَـقَـاهِي، أو خلال الدَرْدَشَات مع الأصدقاء، أو أَثْنَاء الزِيَّارَات العَائِلِيَة، لَا تَـقْـدِرُ على الرُقِـيّ إلى مُستوى نِـقَاش جِدّي.

وَكَثِير مِن الأشخاص يُريدن المُشاركة في «نِـقَـاشَات» صَاخِبَة. وَيَتَـكَـلَّـمُـون فيها بِأَصْوَات مُرْتَـفِـعَـة. وَيُرِيدُون فيها إحْتِكَار الكَلِمَة. وَيَتَـفَـاعَـلُـون فيها بِذَاتِيَة كَبيرة. وفي مُـعْظَم الحالات، لَا يَـعْرِف هؤلاء الأشخاص مَا هو «النِـقَاش الجَيِّد»، أو «المُـفِـيد». وَلَا يَـعْـرِفُـون لَا قَوَاعِد النِـقَـاش، وَلَا أَهْدَافَه. بَلْ يَظُنُّ كثير مِن الأشخاص، وَلَوْ بشكل غير وَاعٍ، أن «النِـقَاش»، أو «النَّـقْد»، أو «الصراع السياسي»، هو مُبَارَزَة ذَاتِيَة، وَفَوْضَوِيَة، بَيْن أَشخاص ذَاتِيّين. وَيَـعْـتَـقِـدُن أن هَدَف النِـقَاش هو إسْكَـات، أو دَحْض، أو تَـكْـذِيب، أو هَزْم، أو غَلَب، أو قَهْر، أو إخْضَاع، والأَطْرَاف الأُخرى المشاركة في هذا النـقاش. وأن النَصْرَ في النِـقَـاش يَرْجِـعُ لِمَن هُو الْأَقْـوَى بِـعَضَلَاتِه، أو بِثَرْوَاتِه. بينما هَدَف النـقاش، على عَـكْـس ذلك تَمَامًا، هو بَحْث جَمَاعِي، وَمُتَأَنِّي، عن الحَـقِـيـقَـة الثَّوْرِيَة. وهو اِسْتِمَاع، وَانْـفِـتَـاح، وَاحْتِرَام، وَتَـوَاضُـع، وَتَأَمُّـل، وَتَـعَاوُن، وَتَـكَـامُـل، وَتَبَادُل لِلْإِفَـادَة.

3.10- مِن الشَّائِـع أن نُصَادِف أشخاصًا يَرْفُـضُون دِرَاسَة مَوَاد مثل الفَلْسَفَة، أو الإقْتِصَاد السياسي، أو التَارِيخ، أو عُلُوم المُجتمع، إلى آخره. (وهي بالضّبط المواد التي تَرْفُضُ الدول الرَّأْسَمَالِيَة تَدْرِيسَهَا في المدارس العُمُومِيَة). وَفِي نَفْس الوقت، يُريد هؤلاء الأشخاص أن يُشَارِكُوا في «نِـقَـاشَات» تَشْمَل هذه المَوَاد (مثل الفَلْسَفَة، أو الإقْتِصَاد السياسي، أو التَارِيخ، أو عُلُوم المُجتمع، الخ). وَيُحَاوِلُون بِـعِـنَـادٍ فَرْضَ آرَائِهِم الشَخْصية في هذه المَيَادِين. وَيَـعْـتَبِرُون أن آرَاءَهُم الشخصية هي الآرَاء الوَحِيدَة الصَّحِيحَة. وهؤلاء الأشخاص هم مثل ذلك المواطن الذي قال : «أنا لم أذهب إلى المدرسة، وَلَا إلى الجامعة، وَلَا أَقْرأُ لَا جَرَائِدَ، وَلَا كُتُبًا، وَلَكِنَّني أَفْهَمُ كُلَّ شَيْء، وَأَعْرِفُ كُلَّ شَيْء» ! وَمِن المَـفْـهُوم أن الشَّخْص الذي لَا يَـعْـرِفُ شَيْئًا، سَيَظُنُّ أنّه يَـعْـرِفُ كُلَّ شَيْء. لأن مَنْ لَا يَـعْرِف شَيْئًا، يَظُنُّ بِسُهُولَة أنه يَـعرف كلّ شَيْء. بَيْنَمَا فَسَاحَة مَـعَـارِف العَالِم تَجْـعَـلُه يُحِسُّ بِشَـسَاعَة وَتَـعْـقِـيدَات القَضَايَا التي يَجْهَلُهَا. وَلَا يَـعْـرِف طَبْـعًا الجَاهِلُ مَا هي مَصَادِر المَـعْـرِفَـة، وَلَا يَـقْـدِر على الحَـفْـر وَالتَنْـقِـيب فيها بشكل دَؤُوب. وَمِنْ مِيزَات العَالِم أنه يَـقُـول: «أَنَا لَا أَعْرِف شَيْئًا»، بَيْنَمَا مِن عَلَامَات الجَاهِل أنه يَـقُـول: «أَنَا أَعْرِف كُلَّ شَيْء» !

3.11- في المُجتمع الرَّأْسَمَالِي، يَكُون الجَاهِلُون الأَغْنِيَاء هُم الذين يَكْتَسِبُون أَكْبَر الحُظُوظ، وَأَقْوَى الوَسَائِل، لِلْفَوْز في الإنْتِخَابَات العَامَّة (سَوَاءً كانت رِئَاسَية، أم بَرْلَمَانية، أم مُتَـعَلِّـقَـة بِالجَمَاعَات المَحَلِّيَة، الخ). وَمِن الشَّائِـع في المُجتمعات الرَّأْسَمَالِيَة أن يَجْمَع كِبَار الأَغْنِيَاء بين الثَّرْوَة الاقتصادية والسُّلْطَة السِيَاسِيَة. ومن السّهل في المُجتمعات الرّأسمالية أن يُصْبِحَ الجَاهِلُون الأَغْنِيَاء، هُم الذين يَحْكُمُون البِلَاد، بَيْنَمَا العُلَمَاء الفُـقَـرَاء يَبْـقَـوْنَ مَحْكُومِين، أو مَسُودِين، أو مَجْهُولِين، أو مُهَمَّشِين، أو مُضْطَهَدِين.

3.12- مِن بَيْن الظَوَاهِر الغريبة، أن بعض الأشخاص، المُتَمَتِّعِين بِالـغُرُور، أو بِالْـعِنَاد، أو بِالوَقَاحَـة، أو بِالإفْرَاط في حُبِّ الذَّات، وَرَغْمَ أنهم غَيْر مُـثَـقَّـفِين، وَرَغْمَ أنهم شِبْه أُمِـيِّـين، وَبِلَا شَوَاهِد مَدْرَسِيَة أو جَامِعِيَة، يَتَـكَـلَّـمُون وَيَتَصَرَّفُون كَأَنَّهُم يَـعْـرِفُون كُلّ شيء، أو كَأَنَّهُم يَـفْـهَـمُون كُلّ شيء. وَيُرِيدُون أن يَكُونُوا هُم «المُسَيْطِرِين» في كلّ النِـقَاشَات. وَيَحْتَـقِـرُون العُلَمَاء، ولا يَـعْتَرِفُون بِالـفَـنِيّين، وَلَا بِالخُبَرَاء. وَفي نفس الوقت، يُريد هؤلاء الأشخاص الجَهَّال تَحَمُّلَ أَعْلَى المسؤوليّات في الجَمَاعَة، أو في الدولة، أو في الحِزْب، أو في الجَمْعِيَة، وَلَوْ أنهم لَا يَكْتَسِبُون أَيَّة خِبْرَة عِلْمِيَة. وَلَا يَهُمُّهُم سِوَى خِدْمَة مَصَالِحِهِم الأَنَانِيَة. وَمَا دَامَ هذا الصِّنْـف مِن الأشخاص لَا يَتَـعَـرَّضُ لِأَيِّ إمْتِحَان يُرَاقِب مَعَارِفَهُم وَخِبَرَاتِهِم، يَسْتَمِرُّون في تَحَدِّيهِم بِـعِـنَـاد فَاحِش. وَيُرِيدُون خَوْض النِـقَـاش، أو الحِوَار، أو النَّـقْد السياسي، على شَكْلِ مُبَارَزَة، أو مُصَارَعَة، مع أيّ شخص كان، وَلَوْ كَانَ أكثر عِلْمًا منهم، أو أَعْمَـقَ خِبْرَةً منهم. وَلَا يَهُمُّ هذا النَّوْع مِن الأشخاص، لَا الوُصُول إلى الحقيقة المَوْضُوعِيَة، وَلَا إتْـقَان المَنْطِق، وَلَا اِكْتِسَاب العُلُوم. وإنما هَمُّهُم الوَحِيد هو إثْبَاتُ ذَاتِهِم، وَتِبْيَان أنهم أَقْوَى، وَأَحْسَنَ، مِن غَيْرِهِم.

3.13- نُلَاحِظ في الدول الغَرْبِيَة الإمْبِرْيَالِيَة، أنها هي التي (في وَسَائِلِها الإعْلَامِيَة) تَتَـكَـلَّم أَكْثَر مِن غَيرها عَن «حُـقُوق الإنْسَان». وهي التي «تَنْتَـقِـد» أكثر من غيرها بَاقِي دُوَل العَالَم، وَتُـعِـيبُ عَلَيها عَدَم اِحْتِرَامِها لهذه الحُـقوق. وَعلى خِلَاف ذلك، مُنْذُ أن نَبْدَأ في تَدْقِيق تَـفَاصِيل الأَحْدَاث العَالَمِيَة، نُلاحظ أن هذه الدُول الغَربيّة هي التي تَخْرُق أَكْثَرَ مِن غَيْرِها «حُقوقَ الإنسان»، في تَـعَـامُـلِهَا مع شُـعُـوب بُلدان "العَالَم الثَّالِث" المَسُودَة. وَتَـكْـتَـفِي الدول الغَربية الإمبريالية بِالتَصْرِيح بِأَهْدَافِهَا الخَاصَّة، أو تُـعْـلِنُ مَصَالِحَهَا الأَنَانِيَة، وَتَـعْـتَـبِـرُهَا «مَـقَـاصِدَ مَشْرُوعَة»، أو «غَايَات قَانُونِيَة»، بَيْنَمَا هذه الأَهْدَاف والمَصَالِح، هي مُجَرَّد غَزْو، أو اِحْتِلَال، أو اِسْتِـعْـمَـار، أو تَـقْـتِـيل، أو سَطْو، أو نَهْب، أو اِسْتِـعْـبَـد، أو تَخْرِيب، أو سَرِقَـة. وَمِن وُجهة نَظَر المُـفْـتَـرِس، فَإن «الإفْـتِـرَاس حَـقٌّ مَشروع»، وَ«مُـقَاوَمَة المُـفْـتَـرَس، هي إرْهَاب بَـغِـيض، أو غَيْر قَانُونِي».

كيْـفَ كنّا نَتَـعَامَل مَع الخِلافَات ومع النَّـقد

4.1- أَتَذَكَّر كَيْفَ كُنَّا نَتَـعَامَل مع «الخلافـــات السياسية»

دَاخِل الحزب الشيوعي المغربي القديم، ثُمّ فيما بَعْد، دَاخِل مُنظّمَة «إلى الأمام» السِرّيّة المُنْشَقَّة عنه. وَتَرْجِعُ هذه الأحداث إلى سنوات مَا بَيْن 1965 و 1976. وَأَتَذَكَّرُ أن المناضل ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي كان آنذاك أَكْبَرَنَا سِنًّا. وكان يَتَفَوَّقُ ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي على مُجمل أعضاء تَنْظِيم «إلى الأمام» في مَجَالات الثَّقَافَة، وَالتَكْوِين، وَالخِبْرَة، والإطِّلَاع على الأَدَب المَارْكْسِي. وَحِينَمَا كُنَّا نَحْن شُبَّانًا مُبْتَدِئِين في السياسة، كانت لِلسَّرْفَاتِي أَكْثَر عَشْرَة سَنَوَات من التَجْرِبَة في صُفُوف اليَسَار. وَكَان السَّرْفَاتِي يَحْظَى بِاحْتِرَام كبير. وَمُنْذُ الْإِنْشِقَاق عن الحزب الشِيُوعي التَحْرِيفِي القَديم، وَكذلك مُنْذ بِدَايَة تَشَكُّل مُنَظَّمَة «إلى الأمام»، لَعِبَ ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي دَوْرًا رَئِيسِيًّا في بَلْوَرَة خَطِّهَا السياسي. وَكان هذا الخَطّ السياسي لِتَنْظِيم «إلى الأمام» يَتَضَمَّنُ بعضَ القَضَايَا التي أَصْبَحَت فيما بعد تُثِير تَسَاؤُلَات، أو تَحَفُّظَات، أو اِنْتِقَادات. وَلَمْ يَكُن يُوجَد آنذاك مُناضلون في «إلى الأمام» (وَلَا في اليسار) في مُسْتَوَى التَحْلِيل الدقِيق، وَالنَقْدِي، لِمُكَوِّنَات الخَطّ السياسي لمنظّمة «إلى الأمام». وَلَمْ يَكُونُوا مُؤَهَّلِين لِتَوْضِيح أن بعض مُكَوِّنَات هذا الخط السياسي كانت غَيْر مُلَائِمَة، أو سَابِقَة لِأَوَانِهَا، أو خَاطِئَة. وَسَاعَدَت آنَذَاك الأَوْضَاع الثورية القائمة على صَعِيد العَالَم ("الاشتراكية" في رُوسيا، والصِّين، والثورة الثَّقَافِيَة في الصِّين، وَحُرُوب التَحْرِير الشَعْبِيَة في كُوبَا، وَفِتْنَام، وَكَامْبُودْيَا، وظُفَار، واليَمَن، وَأَنْغُولَا، وَحَرَكَة العُمَّال والطَلَبَة في سنة 1968 في فرنسا، الخ) سَاعَدَت على تَكَوُّن وَتَحَمُّس الحركات الماركسية اللِّينِينِيَة في كَثِير مِن بُلدان العالم، بما فيها المغرب.

وَخلال سنوات 1970، لَمْ يَكُن أَحَدٌ مِن بَيْن أعضاء منظمّة «إلى الأمام» (بِمَا فِيهِم أنا) يَجْرُؤ على مُخَالَفَة ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي، أو نَقْدِه. [وَلَمْ أَنْشُر مقالًا عَلَنِيًّا يَنْتَقِد ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي إِلَّا في سنة 1982. وكان يَحْمِل عُنْوان «مَشْرُوع فَاس 1982، أو اسْتْرَاتِيجِيَّة تَحْرِير فَلَسْطِين». وصَدَر في جَرِيدة "المَسَار"، في خمسة حَلَقَات مُتَتَابِعَة].

وَأَتَذَكَّر أن مُجْمَل أَعْضَاء الهَيْئَات القِيَادِيَّة في منظّمة «إلى الأمام»، (بِمَا فِيهِم المناضلون الذين كانوا آنذاك بَارِزِين، مِثل عبد الفَتَّاح الفَاكِهَانِي، وعبد اللَّطِيف زَرْوَال، والمُسْتَرِي بْلْعَبَّاس، وعبد الله المَنْصُوري، وعبد اللَّطِيف اللَّعْبِي، وعبد الله زَعْزَع، وعبد الحَمِيد أَمِين، وعَلِي أَفْقِير، الخ)، كَانُوا عُمُومًا يَتَلَافَوْن التَعْبِير (داخل المُنَظَّمَة) عن «خِلَافَاتِهِم» الفِكْرِيَة، أو عَن «اِنْتِقَادَاتِهِم» السياسية. وَحَتَّى لَو أَحَسَّ أَيٌّ مِنْهُم بِوُجُود «خِلَافَات» جُزْئِية، أو فِكْرِية، أو سِيَاسِية، مع ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي، أو مع أيّ مَسْؤُول آخر في المنظّمة، كانوا يَحْرُصُون على تَقْدِيمِهَا على شَكْل «تَسَاؤُلَات». وَكَانُوا يَتَّفَادَوْن تَقْدِيمَهَا على شكل «خِلَافَات»، أو «اِنْتِقَادَات»، إلى مُخَاطَبِيهِم. وَمِن المُمْكِن أن يَكُون هذا التَحَفُّظ (في مُمَارَسَة النَّقْد داخل المُنَظَّمَة) يَأْتِي مِن خَوفِنَا مِن تِكْرَار تَجْرِبَتَنَا المَرِيرَة، المُتَعَلِّقَة بِصِرَاعَاتِنَا الفِكْرِيَة والسياسية مع الحزب الشيوعي التَحْرِيفِي القديم، أو بِإِنْشِقَاقِنَا المُدْهِش عنه. وَيُمْكِن أيضًا أن يَكُون هذا التَحَفُّظ نَاتِجًا عَن خَشْيَتِنَا مِن الْإِصْطِدَام بِـ «خِلَافَات» و«اِنْتِقَادَات» جَدِيدَة، قَدْ تَكُون تَمْهِيدًا لِحُدُوث إِنْشِقَاقَات أُخْرَى جَدِيدة وَمَرِيرَة، داخل مُنظّمة «إلى الأمام» هي نَفسها.

وَأَتَذَكَّر مثلًا، أن مُجَرَّد تَسَاؤُلِي، أو تَعْبِيرِي عن نَقْد بُطْء، أو قِلَّة فَعَالِيَة، مُحَاوَلَات تَجَذُّر مناضلي «إلى الأمام» في صُفُوف الطبقة العاملة، جَلَبَ عَلَيَّ سُوء تَفَاهُم مع قِيَادَة التنظيم، وَتَسَبَّب في إِشْعَال شُكُوك لَدَى هذه القِيَادَة حَول نَوَايَاي العَمِيقَة، أو المَخْفِيَّة.

وَكُنَّا نَخْشَى أن يُؤَدِّيَ نَقْدُ أَيِّ شَخْص، أو أَيَّة جَمَاعَة، سَوَاءً داخل المنظّمة، أم في صُفُوف اليسار، إلى القَطِيعَة النِهَائِيَة مع الجِهَة المُنْتَقَدَة. وَكُنَّا عُمُومًا نُدْرِكُ أَنّ كُلّ شَخْص يَتَعَرَّضَ لِلنَّقْد، مِن المُحْتَمَل أن يَمِيل إلى رَفْض خَوْض النضال المُشْتَرَك مع الشّخص الذي سَبَقَ أن إِنْتَقَدَهُ.

وَلَوْ كُنَّا حَقِيقَةً، دَاخِل منظّمة «إلى الأمام»، مُعْتَادِين على تَبَادُل النَّقْد السياسي الرَّزِين، والمُعَمَّق، بطريقة عَفْوِيَة، وَسَلِيمَة، وَمُسْتَرْخِيَة، وَمُرِيحَة، لَكُنَّا قَدْ اِكْتَشَفْنَا النَقَائِص الموجُودة في أَفْكَار أو مُمَارَسة منظّمة «إلى الأمام». وَلَوْ كُنَّا نُطَبِّقُ النَّقْد بِطريقة مُسْتَرْخِيَة، لَكَان بِإِمْكَانِنَا أن نَتَلَافَى الكَثِير مِن بَيْن الأَخْطَاء السياسية التي اِرْتَكَبْنَاهَا خِلَال تَجَارِبِنَا. وَبِدُون التَعَوُّد على تَبَادُل النَّقْد الدَقِيق والبَنَّاء، سَيَكُون مِن شبه المُستحيل اِكْتِشَاف النَقَائِص والأَخْطاء، وَتَصْحِيحِهَا.

وَمِثْلَ عُمُوم أعضاء تنظيم «إلى الأمام»، كُنْتُ في البِدَايَة مُبْهَرًا بِـ «المُسْتَوَى العَالِي» لِلْأَرْضِيَّات السِيَّاسِيَة (التَوْجِيهِيَة في مَجَالَات الْإِسْتْرَاتِيجِيَة والتَكْتِيك) التي كانت تَطْرَحُهَا قِيَادة تنظيم «إلى الأمام». وَكُنْتُ أُدْرِكُ أَنّ هذه الأرضيّات كانت أَسَاسًا مِن إِنْتَاج ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي. وَقَبْلَ تَعْمِيم هذه الأرضيّات التَوْجِيهِيَة على بَاقِي التَنْظِيم، كانت تَخْضَعُ لِنِقَاش فِيمَا بَيْن أعضاء «الكِتَابَة الوَطَنِيَة» لِلمُنظّمة. وَمِن بَين أعضاء قِيَادَة المُنظّمة الذين سَاهَمُوا في نِقَاش وَاحدة أو أكثر مِن بَيْن هذه الأَرْضِيَّات السِيَاسِيَة التَوْجِيهِيَة (المُنْثُوجَة مِن طَرف السَّرْفَاتِي)، نَذْكُر مَثَلًا عبد اللطيف زَرْوَال، وعبد الفَتَّاح الفَاكِهَانِي، وَبَالْعَبَّاس المُسْتَرِي. وَكانوا كلّهم ذَوِي تَكْوِين أَدَبِي، وَلَيْسَ عِلْمِي). وَلَمْ يَكُن (هذا النِقَاش) يَقْدِر على تَحْلِيل، وَفَحْص، وَنَقْد، أُسُس هذه الأَرْضِيَّات. وَإِنَّمَا كَان (هذا النِقَاش) يَكْتَفِي بِتَحْسِين بعض تَفَاصِيلِهَا الشَّكْلِيَة، أو الثانويّة. وَمُنْذُ سنة 1973، حِينَمَا كُنْتُ أعمل في اللَّجْنَة التِقْنِيَة لِلْمُنَظَّمَة، بَدَأْتُ أَشْعُر أن هذه الأرضيّات السياسية التَوْجِيهِيَة، المطروحة من طَرَف السَّرْفَاتِي (خاصّة فيما يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا مثل حَرْب التَحْرِير الشَعْبِيَة، والقَوَاعِد الحَمْرَاء المُتَحَرِّكَة، وَمَا شَابَهَهَا)، كان فيها ضَعْف مِن زَاوِيَة الدِقَّة العِلْمِيَة. وَكَانَ طَرْحُ قَضَايَا العُنْف الثَّوْرِي سَابِقًا لِأَوَانِه. وَبَدَأْتُ أُحِسُّ أَنّ السَّرْفَاتِي، بِالرَّغْم مِنْ تَكْوِينِه العِلْمِي كَمُهَنْدِس في شُعْبَة المَعَادِن، كان أَقْرَبَ إلى شَاعِر مُتَحَمِّس، وَأَقَلّ قَلِيلًا مِنْ عَالِم دَقِيق. وَلَاحَظْتُ أنه، مِن فترة لأخرى، كانت تَغْلُب على بعض الأطروحات السياسية لِلسَّرْفَاتِي عواطف جَيَّاشَة. وَبَدَأْتُ أَشُكُّ أَنَّ هذه الأَرْضِيَّات السياسية التَوْجِيهِيَة غَيْرَ مَبْنِيَة بِمَا فيه الكِفَايَة، في أُسُسِهَا، على مَنْهَج عِلْمِي دَقِيق. وَلَوْ أَنَّنِي أَشْهَدُ أنها كَانت تَتَلَاءَمُ مَعَ، وَتَسْتَجِيب لِـ، الحَمَاسَة الثَّوْرِية التي كانت آنَذَاك سَائِدَة داخل شَبَاب الجَامِعَات والمَدَارس. وَلَمْ تُسَاعِدْنِي في ذلك الوقت كثرة المَهَام اليومية في «اللَّجْنَة التِقْنِيَة»، وكذلك التطوّرات الهَامّة المُتَلَاحِقَة في البلاد، على تَعْمِيق تَسَاؤُلَاتِي، أو أَبْحَاثِي، حول دِقَّة مَضْمُون هذه الأَرْضِيَّات السِيَّاسِيَة التَوْجِيهِيَة. وَلَمْ أَتَجَرَّأْ على نَقْد أيّة واحدة من هذه الأرضيّات. وَلَمْ يَكُن عندي وُضُوح كَافٍ حول كَيْفِيَة نَقْد هذه الأرضيّات. وَأَتَذَكَّر أن مُجَرَّد تَسَاؤُلِي، أو تَعْبِيرِي عن نَقْد بُطْء، أو قِلَّة فَعَالِيَة، مُحَاوَلَات تَجَذُّر مناضلي «إلى الأمام» في صُفُوف الطبقة العاملة، جَلَبَ عَلَيَّ سُوء تَفَاهُم مع قِيَادَة التنظيم، وَتَسَبَّب في إِشْعَال شُكُوك لَدَى هذه القِيَادَة حَول نَوَايَاي العَمِيقَة أو الخَفِيَّة.

وَفي آخر حياته، اِنْخَدَعَ نِسْبِيًّا ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي بِالدِعَايَة المنشورة حول «مَلِك الفُقَرَاء»، الملك الشَّاب الجَدِيد محمّد السَّادِس. وَأَمَنَ السَّرْفَاتِي جُزْئِيًّا بِإِمكَانِيَة إِصْلَاح النظام السياسي القائم في المَغْرب مِن دَاخِل مُؤَسَّسَاتِه. كَأَنّ السَّرْفَاتِي نَسِيَ، أو كَأَنَّه لَمْ يُدْرِك بِمَا فيه الكِفَايَة، أنه، في إِطَار العَلَاقَة بين شَخْص رَئِيس الدَّوْلَة أو المَلِك، وَنَوْعِيَة النظام السياسي القائم في المُجتمع، فَإِن نَوْعِيَة النِظَام السياسي القَائِم هي التي سَتُحَدِّدُ أَفْكَار وَسُلُوكِيَّات شَخْص المَلِك؛ وَلَيْسَ شَخْص المَلِك، أَوْ نَوَايَاه، هي التي سَتَقْدِرُ على تَحْدِيد نَوْعِيَّة النِظَام السِيَّاسِي القَائِم. وَلَمْ يَتْبَع أيّ مُنَاضِل مِن بين قُدَمَاء أَعْضَاء مُنَظَّمَة «إلى الأمام» ابْرَاهَامَ السَّرْفَاتِيَّ في ذلك المَنْحَى الإصلاحي المُتَأَخِّر.

4.2- أَثْنَاء نِضَالِنَا في إِطَار السِرّيَة (بين سنوات 1969 و 1974، بِمَا فيها فَتْرَة تَسَلْسُل الإِعْتِقَالَات في سنة 1974، ثُمّ في سنة 1975، وكذلك بَعْد دُخولنا إلى السِجْن المركزي بِمَدِينَة القُنَيْطِرَة)، كان طَبْعِي الشَّخْصِي التِلْقَائِي والصَّرِيح يَدْفَعُنِي إلى التَعْبِير عن آرَائِي المُخَالِفَة. وَكَان تَكْوِينِي العِلْمِي يَدْفَعُنِي إلى الإِعْتِقَاد أن البَحْث، والاجتهاد، وتَبَادُل النَّقْد، هي كُلُّهَا سُلُوكِيَّات مَحْمُودَة، بَلْ ضَرُورِيَة. فَكُنْتُ أُعَبِّرُ (داخل تَنْظِيم «إلى الأمام») عن بعض «المُلَاحَظَات»، أو «التَسَاؤُلَات»، أو «الإِنْتِقَادَات» السِيَاسِيَة، وَلَوْ أنها بَقِيَت على العُمُوم جُزْئِيَة. وَكُنْتُ في هذا المَجَال مُخْتَلِفًا عن كَثِيرِين مِن أعضاء «إلى الأمام».

وكان بعض المسؤولين في قِيَادَة «إلى الأمام» يَنْظُرُون إلى سُلُوكِي هذا بِرَيْبَة وَاضِحَة. وَقَدْ جَلَبَ عليَّ هذا السُّلُوك (المُتَسَاهِل، أو النَّاقِد) مَشَاكِل وَعِرَة، وَثَقِيلَة، وَمُؤْلِمَة، وَدَائِمَة. وَخَلَقَ لِي هذا السُّلُوك سُوءَ تَفَاهُمَات عَوِيصَة مَع أعضاء قِيَادَة المُنظّمة. حيثُ أن أعضاء قِيَادة «إلى الأمام»، كانوا يَتَعَامَلُون مع آرَائِي المُتَسَائِلَة، أو المُتَفَاوِتَة، أو المُخَالِفَة، أو النَّاقِدَة، حَتَّى وَلَوْ بَقِيَّت جُزْئِيَّة، كانُوا يَتَعَامَلُون معها كَعَلَامَات خَطِيرَة. وَظَهَرَت هذه الرَّيْبَة لَدَى عِدَّة أَشْخَاص في قِيَادَة «إلى الأمام»، مثل ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي، وَبَلْعَبَّاس المُسْتَرِي، وَعبد اللطيف زَرْوَال، وَعبد الفَتَّاح الفَاكِهَانِي، وَمحمّد السَّرِيفِي، وَعبد الله زَعْزَع، الخ.

وَكَانُوا يَعْتَبِرُون أن هذه «التَسَاءُلَات»، أو «المُلَاحَظَات»، أو «الإِنْتِقَادَات»، قَدْ تُثْبِتُ ضُعْفَ وَلَائِي لِلْقِيَادة، أو لِلْمُنَظَّمَة. وكانوا يُحِسُّون بِهَا كَأَنَّهَا تُنْذِر بِإِعْدَادِي السِرّي لِانْشِقَاق تَنْظِيمِي مُحْتَمَل. لِأَنَّه، في مَنْطِقِنَا المُشْتَرَك السَّائِد آنَذَاك دَاخِل المُنظّمة، الخِلَاف، أو النَّقْد، داخل المُنَظَّمة، يُؤَدِّي حَتْمًا إلى الْإِنْشِقَاق. وَبِسَبَب اِنْتِقَادَاتِي، وَلَوْ كانت شَكْلِيَة، أو جُزْئِيَّة جِدًّا، كان أفراد قِيَادة منظّمة «إلى الأمام» يَشُكُّون في وَلَائِي لهم، وكانوا يُحَاصِرُونَنِي سِرًّ. وَعَمِلُوا مِرَارًا على مُعَارَضَة نَشْر، أو تَدَاوُل، كِتَابَاتِي وَآرَائِي، سَوَاءً في داخل المنظمة، أم في خارجها.

وكانت هذه الاحتِيَاطَات مُبَالَغ فيها، بَل خَاطِئَة. حيثُ كنتُ، في قَنَاعَاتِي العَمِيقَة، مُنَاهِضًا لِلْكَوْلَسَة، وَلِلزَّعَامَيَة، وَلِلتآمُر. وَفِيمَا بَعْد، شَهِدَ مُعْظَم المُعْتَقَلِين السُّبَّان مِن بَيْن الأعضاء القُدَامَى في منظّمة «إلى الأمام» (بِمَا مَعْنَاه) أن «نَتَائِج تَحْلِيل تَسَلْسُل الإِعْتِقَالَات بين سَنَوَات 1974 و 1976، وَصُمُودِي ضِدّ التَعْذِيب، وَعَدَم تَسَبُّبِي في اِعْتِقَال أيّ مُنَاضِل، أَثْبَتَا أن إِخْلَاصِي لِلمُنَظَّمَة وَلِلثَّوْرَة، كان أَكْثَر صَلَابَةً مِن مُقَابِلِه لَدَى أُولَئِك الذين كانوا يَشُكِّكُون في وَلَائِي». لكن ما يَهُمُّ هُنا ليس هو القَضَايَا الشَّخْصِيَة، وَإِنَّمَا هُو تَوْضِيح مَسْئَلَة تَعَامُل أعضاء الحزب مع «الخِلَافَات السياسية»، ومع «النَّقْد السياسي».

4.3- مِن الظَّوَاهِر الـغَريبَة أيضًا، أنّ مُعْظَم الأعضاء في تنظيم «إلى الأمام»، كَانُوا يَـفْتَـرِضُون بَلَّـقَائِيًّا أن «الحِزْب يُجَسِّد بِالضَّرُورَة إِنْسِجَامًا تَامًّا في كلّ الأفكار». وَكَانُوا يَظُنُّون أن وُجُود خِلَافَات فِكْرِيَة أو سياسية دَاخِل حِزب مُـعَيَّن، يُؤَدِّي حَتْمًا إلى إِنْشِـقَاق هذا الحِزْب. وَكُنَّا دَاخِل «إلى الأمام» نَـفْـتَـرِض أن «الخِلَافَات النَظَرِيَة» أو «الخِلَافَات السياسية» خَطِيرَة، أو مُحَرَّمَة، دَاخِلَ الحِزب الوَاحد المُشترك. وهذا طبعًا تَصَوُّر مِثَالِي، وَغَيْر جَدَلِي، وَغَيْر عَـقْـلَانِـي، بَلْ خَاطِئ. لِذَلك كان جُلُّ أعضاء الحزب، مِن القَاعِدَة إلى القِمَّة، يَخَافُون من ظُهُور «خِلَافَات نَظَرِيَة أو سِيَّاسية» فيما بين أعضاء الحزب. وَبِـتَـقَـالِيدِنَا السُّطَالِينِيَّة، كُنَّا نُحِسُّ بِظُهُور أيّ «خِلَاف نَظَرِي أو سيّاسي» على أنه «خَطَر جَسِيم»، قَدْ يُنْذِرُ بِـ «احْتِمَال التَطَوُّر إلى صِدَام، ثُمّ إلى إِنْشِـقَاق جِزْبِـي» في المُسْتَـقْـبَـل. وَكُنَّا نَتَحَدَّث عن بَوَادِر «الخِلَافَات النَظَرِيَة أو السياسية» بِحَذَر شَدِيد. وحتّى حِينما كان بَعْضُنَا يَكْتَشِـفُ وُجُود «خِلَافَات نَظَرية أو سِيَّاسية» حَقِيقِيَّة، فإنه يَتَلَافَى الوُقُوف عندها، أو التَـعْبِير عَنْهَا، أو البَحْث فيها. كما كان مُعظم الأعضاء في المُنَظَّمَة يَتَجَنَّبُون تَـعْـمِيقَ الدِرَاسَة في «الخِلَافَات» التي قَدْ تَظْهَر لِلْوُجُود. لِأَنَّنَا كُنَّا نَتَوَجَّسُ مِن التَسَبُّب في إِحْدَاث صِدَامَات حَادَّة، أو صِرَاعَات مُؤْسِفَة. وَكُنَّا نَخْشَى التَسَبُّبَ في إِحْدَاث إِنْشِـقَاقَات تَنْظِيمِيَة جَدِيدَة، أو مُتَوَالِيَة، أو لَا مُنْتَهِيَة.

وفي نفس الوقت، كُنَّا نُمَارِسُ «النَـقْـد السياسي»، و«الصِرَاع السياسي»، ضِدَّ الأشخاص الذين هُم خَارِج المُنَظَّمَة، بِـقُـوَّة حَمَاسِيَة، وَبِلَا هَوَادَة، وَلَا كِيَاسَة، وَلَا مُرُونَة. وكنّا في بعض الأَحْيَان نُـقَلِّد أَسَالِيب النَّـقْـد وَالصِرَاع الْأَكْثَرُ قَسَاوَةً لَدَى المُـفَـكِّرِين الماركسيّين الكبار، (مثل كَارْل مَارْكْس، وافْرِيدْرِيش إِنْغَلْس، وَافْلَادِيمِير لِينِين، الخ). وَمِن بين نَتَائِج هذه الأَسَالِيب القَلِيلَة الْلَّبَاقَة في النَّـقْـد والصِرَاع، أنّ كلّ شخص، أو حِزب، نَنْتَـقِـدُه، كان يُحِسُّ بهذا النَّـقْـد الصَّارِم كَحُجَّة كَافِيَة على أننا نُرِيد تَدْمِيرَه. وَلَم نَكُن نُرَاعِي (في النَّـقْـد، وفي الصِرَاع السِيَاسي) ضَرُورَة صِيَانَة خُطُوط مُسَاهَمَة الأشخاص الذين نَنْتَـقِـدُهُم في خَوْض «النِضَالَات الجَماهيرية المُشْتَرَكَـة» في المُسْتَـقْـبَـل الْآتِـي. الشَّيء الذي يُؤَكِّدُ، مَرَّةً أُخرى، أننا لم نَكُن نُتْـقِـنُ فَـنّ مُـعَـالَـجَة التَنَاقُضَات الثَانَوِيَة المَوْجُودَة في صُفُوف الشعب.

4.4- الحقيقة الثورية هي أنه لَا يُـعْـقَـل أن نَـعْـتَـبِر «الحزب كَتَجْسِيد لِانْسِجَام تَامّ في كلّ الأفكار». وَلَا يُـقْـبَـل أن نَتَصَوَّر «الحزب كَاتِّـفَـاق يَشْمَل كلّ المَيَادِين، وَكُلّ التَـفَـاصِيل». بَلْ الحِزب يَـعْـنِـي فقط وُجُودَ اتِّـفَـاق على خُطُوط عريضة، أو على تَوَجُّهٍ شَامِل، أو على بَرْنَامَج عَام، مَعَ القَبُول، في نَـفْس الوَقْت، بِـإِمْكَانِيَّة ظُهُور أو تَوَاجُد تَـفَـاوُتَـات في بعض الآرَاء، أو حَتَّى خِلَافات في بعض القَضَايَا الثَانَوِيَة، أو الجَدِيدَة، أو الجُزْئِيَة، أو التَـفْـصِيلِيَة. وَبِالتَّـالِي، تُصْبِحُ «الخِلَافَات»، وَ«الْاِنْتِـقَـادَات»، و«الصِرَاعَات»، طَبِيعِيَة دَاخِل الحزب. بَل هي ضَرُورِيَة. بِشَرْط أن نُمارِسَهَا بِمَهَارَة ثَوْرِيَة، وَبِلَبَاقَة ذَكِيَّة. وَدَوْر النِـقَـاشَات الدَاخِلِيَة في الحزب، وَدَوْر تَبَادُل النَّـقْـد الرَّزِين، وكذلك دَوْر النَدَوَات، والتَكْوِينَات، والمُؤْتَمَرَات، وَمَا شَابَهَهَا، هو بالضَّبْط تَـعْـمِيق البَحْث العِلْمِـي، والنِـقَـاش الجِدِّي، في مُجمل تِلْك القَضَايَا الخِلَافِيَة الجَدِيدَة، أو الثَانَوِيَة، أو الجُزْئِيَة، أو التَـفْـصِيلِيَة، بِهَدَف تَشْيِيد اِتِّـفَـاقَـات جَدِيدَة حَوْلَهَا في دَاخِل الحزب.

4.5- لَـقَدْ عَلَّمَتْنَا الجَدَلِيَة أنه مِن غير المَعْقُول أن نَطْلُب مِن أعضاء الحِزْب أن يَكُونُوا كُلُّهُم مُثَـفِـقِين على كُلّ شَـيء. وَمِن السَّدَاجَة أن نَمْنَع ظُهُور الخِلَافَات. بَلْ مِن الطَبِيعِي أن تَظْهَر، مِن فَتْرَة لِأُخْرَى، تَـفَـاوُتَـات في بعض الآراء، أو خِلَافات حَوْلَ بعض القَضَايَا الثَانَوِيَة، أو الجَدِيدَة، أو الجُزْئِيَة، أو التَـفْـصِيلِيَة. والحَلُّ لِمُعَالَجَة هذه الخِلَافَات الجُزْئِيَة، هو تَبَادُل الآراء، وَالِاجْتِهَادَات، وحتى الْاِنْتِـقَـادَات الجِدِّيَة والمُـعَـمَّـقَـة. بَل النِـقَـاشَات المُـعَـمَّـقَـة، وَتَبَادُل الْاِنْتِـقَـادَات الرَّزِينَة، هي المَنَاهِج التي تُشَيِّدُ اِتِّـفَـاقَات جَدِيدة، وَتُـعِـيدُ بِنَاء وَحْدَة الحِزْب، وَتَضْمَن صَلَابَتَه، إن هي مُورِسَت بِمَهَارَة ثَوْرِيَة مُلَائِمَة.

حَرَكِيَة النَـقْـد ثُمّ نَـقْـد النَـقْـد

كلّ نَـقْـد إِلَّا وَتَـتْـبَـعُـه رُدُود أَفْـعَـال، وَانْـتِـقَـادَات مُضَادَّة. فإن كان النَّـقْـد الأصلي سَلِيمًا، يُصْبِحُ بِالْإِمْـكَـان أن تَأْتِـيَ الرُّدُود عليه سَلِيمَة. وإن كان النَّـقْـد الأَوَّل جَارِحًا، أو فَـظًّـا، تَـتْـلُـوه بِالضَّرُورة رُدُود اِنْـتِـقَـامِيَة، أو عَدَائِيَة. وَقَدْ يَـغْـدُو هذا الجِدَال بِسُرْعَة عَـقِـيـمًـا.

5.1- لِاسْتِـعْـرَاض بَعض النَمَاذِج المَلْمُوسة مِن النَـقْـد السياسي المُوَجَّه إلى قِوَى اليسار بالمَغْرِب، أَذْكُر مَثَلًا مَقَالًا قَصِيرًا لِلسَيِّد أحمد الزُّوبْدِي، وَعُنْوَانُه هو «اليَسَار المَـعْـطُوب». [وقد نَشره على موقع "الحِوَار المُتَمَدِّن"، وعلى صفحته الشخصية على "الفيسبوك"].
وقد اِنْـتَـقَـدَ أحمد الزُّوبْدِي قِوَى «اليسار» في المغرب، لكنه لم يُحَدِّد بِدِقَّة مَا هي الأحزاب التي تَدخل ضِمْنَ هذا «اليسار»، وَتِلْك التي لَا تَسْتَحِقُّ أن تُدْخَل فيه.

وَكَتب أحمد الزُّوبْدِي عن أحزاب اليسار: «المُـعِيق الأوّل [لِنَجَاعَة اليسار] هو غِيَّاب الفِكْر». وَمِن الخَطَإ أن نَـقُـول أنّ الفِكْرَ «غَائِب»، أو مُـنْـعَـدِمٌ تَمَامًا، لَدَى أحزاب اليسار. لأن كلّ قُوَّة مِن بَيْن قِوَى اليَسَار تَحْمِلُ بِالضَّرُورَة فِكْـرًا مُحَدَّدًا. وَالـعَائِـق [الذي يَـعُـوقُ فَـعَـالِيَة اليَسَار] هو أن نَوْعَ الفِكْـر السَّائِد لَدَى بعض قِوَى اليَسَار هو نَمَط الفِكْر البُورْجُوَازِي الصَّـغِير. وَمِن مِيزَات نَمَط الفِكْر البُرْجُوَازِي الصَّـغِير أنه رَأْسَمَالِي، وَإِصْلَاحِي، وَمُسْتَلَب. وَبِالتَّالِي وَجَبَ التَرْكِيز على نَـقْـد مَضْمُون نَمَط الفِكْر البُورجوازي الصَّـغِير، وليس التَنْدِيد بِـ «غِيَّاب» أيّ فِكْر. وَاتَّـهَمَ أيضًا أحمد الزُّوبْدِي أحزاب اليسار بِكَوْنِها «مُخْتَرَقَة مِن طرف الأجهزة الأمنية بشكل فَظِيع». وَمِن المُمكن أن يَـكُون هذا الْاِتِّـهَام صَحِيحًا، بِدَرَجَة مُحَدَّدَة، أو بِأُخْرَى. كما يُمكن أن يَكُون هذا الإتِّـهَام خَاطِئًا. لكن عَيْب مقال أحمد الزُّوبْدِي هو أنه لم يَذْكُر المَرَاجِع، وَلَا المَصَادِر، التي اِسْتَنَدَ عليها في التَـعْـبِير عن هذا الْاِتِّـهَام. وَلَمْ يُـقَـدِّم مقال الزُّوبْدِي أَيَّةَ حُجَّة كَافِيَة، أو مُـقْـنِعَة، لِإِثْـبَـاتِ هذا الإتِّـهَام.

كما كَتب الزُّوبْدِي عن أحزاب اليسار التي تَتَوَافَقُ، أو تَتَـآلَـفُ، مع النظام السياسي المَخْزَنِي القائم في المغرب، أنها «يَسار مُدَلَّس، صَنَـعَـه المَخْزَن». بَيْنَمَا هذه الأحزاب المَقْصُودَة، والتي تُهَيْمِنُ دَاخِلَها عَنَاصِر مِن الفِئَات الطَـبَـقِـيَـة البُورْجُوَازية الصَّغِيرة، حَتَّى لَوْ لَمْ يَصْنَـعْـهَا النظام السياسي المَخْزَنِي القائم، فإن طَبِيعَتَهَا الطَـبَـقِيَة البُورْجُوَازِية الصَغِيرَة، تَدْفَعُها بِقُـوَّة نَحْوَ التَـعَامُل، أو التَـعَاوُن، مَع الأَعْدَاء الطَـبَـقِـيِّين لِلشَّـعْـب، ومع النظام السياسي الاستبدادي القائم. وَمَا يجب علينا أن نُوَضِّحَه، هو أن مِيزَة الفِئَات الطَـبَـقِـيَـة البُورْجُوَازِيَة الصَّـغِيرة، هي أنها، في وَقْت السِّلْم، تَكُون تَـقَـدُّمِيَة، أو نَاقِدَة، أو مُطَالِبَة بِالدِّيمُوقْرَاطِيَة. وفي وَقْت الْاِنْتِخَابَات العَامّة، تُرِيد الحُصُول على أَصْوَات قِوَى اليَسَار. وفي وَقت اِشْتِدَاد الصِرَاع الطَـبَـقِـي، تَحْرُصُ فِئَات البُورْجُوَازِيَة الصَّـغِيرَة، بِمَا فِيها الفِئَات التي تَدَّعِـي تَبَنِّـي «الْاِشْتِرَاكِيَة»، تَحْرُصُ على الْاِبْتِـعَـاد عَنْ اليَسَار، وَعَلى الْاِصْطِـفَـاف إلى جَانِب النِظَام السِيَاسي الرَّأْسَمَالِـي الْاِسْتِبْدَادِي القَائِم.

وَتُـهَيْمِنُ على مقال أحمد الزُّوبْدِي نَبْرَة فيها شَيْءٌ مِن الْاِحْتِـقَـار، أو مِن العَدَاوَة، لِـ «أحزاب اليسار» بالمغرب. وهذا سُلُوك غير سَلِيم، أو غير مُسْتَحَب. لأنه، مَهْمَا تَكَاثَرت اِنْتِـقَـادَاتُنَا لِـقِـوَى اليسار، يجب علينا، في نفس الوقت، أن لَا نَنْسَى أنها قِوَى مُنْتَـمِـيَـة مِن واقع المُجتمع المَوْضُوعي، وأنها تُـعَـبِّـر عن التَنَاقُضَات الثَانَوِيَة المَوجُودة في صُفُوف الشَّعب. وَرَغْمَ الأخطاء التي يُمكن أن تَـقُـومَ بها أحزاب اليَسار، يَلْزَمُنَا أن نَتَـعَـامَل معها بِحَدٍّ أَدْنَـى مِن الْاِحْتِرَام. وَإِذَا اِنْـتَـقَـدْنَاهَا، يَنْبَـغِـي أن نَنْتَـقِـدَهَا بِدُون تَشَـقِّـي، وَلَا بَكَايَة، وَلَا تَـعَـالِـي. ويجب أن يكون هدف نَـقْـدِنَا السياسي [لِـقِـوَى اليَسَار] هو تَـقْـوِيم المُنْتَـقَـد، وليس إِذْلَال المُنْتَـقَـد، وَلَا القَضَاء عليه.

5.2- في نَمُوذَج آخَر مِن النَّـقْـد السياسي، أقدم عبد الله الحريف على نشر بعض انتقاداته المُوجّهة إلى بعض قِوَى اليسار (تحت عُنوان: «نَـقْـد بعض الأفكار الخاطئة»). وقد شَكَّلَ هذا النَّـقْـد مُبادرة نادرة، وجرّيئة، وتستحق الاهتمام، والتشجيع. لكن هذه المُبادرة تَوَقَّـفَـت حيثُ بدأت. ولم يَتْـبَـعْـهَا تَبَادُل لِلْحِوَار النَّـقْـدِي البَنَّاء، فيما بين قِوَى اليسار.

وقبل عَرْض اِسْتِنْتَاجَات أخرى في مَوْضُوع هذا النَّـقْـد، أُعِيدُ التَذْكِير هُنَا بِمَا وَرَدَ في بداية هذه الدِرَاسَة. حيث أن عبد الله الحريف طَرح في مقاله أن قِوَى "فيديرالية اليسار" تَلْتَزِمُ بِالمُشَاركة في «الانتخابات ... [التي] تُـكَرِّسُ شَرْعِيَة المَخْزَن». وَتُطالب القِوَى المُكَوِّنَة لِـ "فيديرالية اليسار" بِـ «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة»، وَتُريد «تَحْقِيقَهَا مِن خلال تَوَافُـقَـات فَوْقِيَة مع المَخْزَن»، بَدَلًا مِن العَمَل على إِسْـقَـاطِ هذا النظام السياسي، باعتباره «غَيْرَ قَابِل للإصلاح». وطرح الحريف أن مُشاركة "حزب الاتحاد الاشتراكي" في «التَنَاوُب» على الحُكُومَة «أَدَّى إلى إِضْعَاف اليسار». وَاتَّـهَمَ الحريف قِوَى "فيديرالية اليسار" بِـ «الذَّيْلِيَة التامّة لمواقف ومُبادرات المَخْزَن» في قضية الصحراء الغربية. وكتب الحريف «أن "حِزب المُؤتمر الوطني الاتحادي" [هو] مُجَرَّد واجهة لِنِـقَـابَة "الكُونْـفِـيدِيرَالِيَة الدِّيمُوقراطية لِلشُّـغْـل"»، وأنه «يَلْتَزِم بالسِّلْم الاجتماعي، على حِسَاب الطبقة العاملة... وَيَتَوَاطَؤُ مع المَخْزَن» [أي النظام السياسي القائم في المغرب]. وقال الحريف أن «قيادة "الحزب الاشتراكي المُوَحَّد" تُـؤَكِّد أنها ليست ضِدَّ المَخْزَن». أَيْ أنها تَرْفُضُ العَمَل من أجل إِسْـقَـاطِه. وقال الحريف أن «خَطًّا سِيَّاسِيًا يَمِينِيًّا... يُهَيْمِنُ داخل "حزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي"... [وداخل] "فيديرالية اليسار الديموقراطي"». وَنَدَّدَ الحريف بِـ « أَوْهَام التَوَافُـق مع المخزن». وَرَأَيْنَا فيما سَبَق أن مناضلين من "حزب الطَّلِيـعَـة" رَدُّوا على عبد الله الحريف. حيثُ وَصَفَه مُنعم أُوحَتِّـي بِـ : «الضَّحَالة»، و«القُصُور في التَـفْـكِير»، و«الصِّبْـيَانِيَة»، و«التَّـيَـاسُر». وَوَصَفُه مُحمد بوبكر بِـ : «أَلْزْهَايْمَر السِّيَاسي»، وَ«التَّـعْـوِيض عَن النضال». وَوَصَفَه ادريس غازي بِـ : «عَرْقَلَـة الوحدة»، و«التَّـشْـوِيش على المُؤتمر الاندماجي» فيما بين أَحْزَاب "فِيدِيرَالِيَة اليَسَار الديموقراطي". وَلَم يُدْرِك المُناضِلُون الذين رَدُّوا على عبد الله الحريف، أن المُشْكِل الذي يَهُمُّنَا، لَيْسَ هُو هَل شَخْص النَّاقِد حَسَن أم قَبِيح، وَإِنَّمَا هُو: هَلْ الْاِنْتِـقَـادَات التي طَرَحَهَا النَّاقِد صَحِيحَة أم خَاطِئَة؟ وَلِمَاذَا؟

وَبِـغَـضّ النَـظَـر عن شكل ومضمون انتقادات عبد الله الحرّيف، كان مِن حَقِّه كَمُواطن، وكمناضل، أن يُعبّر عن

انتقاداته، وأن ينشرها، ولو كانت هذه الانتقادات مُوجّهة إلى أحزاب مُحْتَرَمَة، تُحْسَبُ عَادَةً على اليَسار، مثل "حزب الْاِشْتِرَاكِي المُوَحَّد"، و"حزب الطليعة ، و حزب المؤتمر الاتّحادي ، و"فِيدِيرَالِيَة اليَسَار الدِّيمُوقْرَاطِي".

5.3- مِن الأَكِيد أن قوى اليسار بالمغرب تَحْتَاج إلى تَبَادُل النقد المَكْتُوب، والبَنَّاء، فيما بينها. وهذا النقد الفكري أو السياسي هو، ليسَ فقط حَقٌّ مَشْرُوع، وإنما هو أيضًا واجب نضالي. بَل يُشكّل ضَرورة مُلِحَّة في الفترة التاريخية الحالية. ولماذا ؟ لأنه، إذا لم تَتَبَادَل قِوَى اليسار النَّقْد النَظَرِي، أو السِيَّاسِي، فيما بينها، فإنها لَن تَسْتَطِيع الخُروج مِن بعض سُوء التَّفَاهُمَات القَائِمَة فيما بينها. وَلَن تَقْدِرَ على تَوْضِيح نَوْعِيَة الخِلَافَات النَظَرِيَّة، أو السِيَاسية، أو التَكْتِيكِيَة، أو الإسْتْرَاتِيجِيَة، الموجودة فيما بينها. ويَحْتَاجُ النضال الجماهيري المُشترك، ليس فقط إلى إِبْرَاز القَنَاعَات المُشْتَرَكَة، وَإِنَّمَا يَسْتَوْجِب أيضا، تَوضِيحَ طَبِيعَة الخِلَافَات، وَتَقْدِير حَجْمِهَا، وَتَحْدِيد أسبابها، وَفَهْم تَأْثِيرَاتِهَا أو نَتَائِجِهَا على إِمْكَانَات خَوْض النضالات الجماهيرية المُشتركة. وَتَبَادُل النَّقْد البَنَّاء، هو الذي يُساعد على بُلُوغ هذا الوُضُوح.

5.4- لم يَستعمل عبد الله الحريف، في مقاله المذكور سابقا، سَبًّا وَاضِحًا، وَلَا تَحْقِيرًا مَقْصُودًا.

ورغم كلّ ذلك، وَلِكَي تَكُون مُتَوازِنِين في أحكامنا، يُمكن أن نَقُول نِسْبِيًّا أن عبد الله الحريف لَمْ يُرَاعِ بما فيه الكِفَايَة ضَرورة الكِيَاسَة في بعض التَعَابير، أو اللَّبَاقَة في إِصْدَار بعض الأحكام، أو الحَذَر في اختيار عِبَارَات بعض التَصْنِيفَات السياسية. وذلك بالضَبط بهدف تَلَافي إِثَارَة الحَسَاسِيَّات، أو الذَاتِيَّات، أو الأحقاد، لَدَى الأشخاص المُنْتَقَدِين. وكذلك بهَدَف أن لَا يُحَطِّمَ هذا النَّقْد إمكانيةَ خَوْض النضال الجماهيري المُشْتَرَك في المُستقبل، مع هؤلاء الأشخاص والمناضلين المُنْتَقَدِين. خاصّة وأن مُجتمعنا لا يَـأْلُفُ النَّقْد. وأفراد شعبنا لا يَتَحَمَّلُونَه. وحتى مناضلي قِوَى اليسار، لَم يَتَعَوَّدُوا بَعْدُ على تَحمّل النَّقد السِيَّاسِي العَلَنِي المَكْتُوب. بَل غَالِبًا مَا يُحِسُّ مُوَاطِنُونَا بِالنَّقْد كَاسْتِفْزَاز، أو كَهُجُوم، أو كَعُدْوَان.

5.5- عند كتابة النقد السياسي فيما بين المناضلين، أو فيما بَين القِوَى السياسية، نَعِيش التَنَاقُض التّالي : من جهة أولى، نَوَدُّ التَعْبِير عن آرائنا وَتَقْيِيمَاتِنَا، بشكل صَريح، وَكَامِل، وَبِلَا خَوْف، وَلَا بَتْر، وَلَا نُقْصَان، وَبِدُون مُرَاوَغَة، وَبِدون كَبْت قَنَاعَاتنا العَمِيقة. ومن جهة ثانية، نحتاج إلى تَلْطِيف عِبَارَات إِنْتِقَادَاتِنَا، لكي لَا تَكُون جَارِحَة. وفي أحيان كثيرة، نَرْتَبِك، أو نَتَرَدَّد، فَلَا نَدْرِي هل يجب أن نَنْتَقِد، أم أنه مِن الأَحْسَنِ أن نَسْكُت. لأنه، إذا كانت التَعَابِير المُستعمَلة في النَّقد جَارحة (وَلَوْ مِن وُجْهَة نظر المُنْتَقَد وَحْدَه)، فإن المُنْتَقَد سيرفض النقدَ الموجّه إليه في شُمُولِيَتِه. بل قَدْ يُحِسُّ المُنْتَقَد بهذا النَّقد كَـهُجُوم عُدْوَانِي عليه. وَمِن المُحْتَمَل أن يَكون هذا هو بالضَبْط الشُّعُور الذي أَحَسَّ به بعض مناضلي حزب الطَّلِيعَة ، و حزب الاشتراكي المُوَحَّد ، و"حزب المُؤتمر الْاِتّحَادِي"، مِن خِلَال قِرَاءَة إِنْتِقادات عبد الله الحريف.

5.6- صَحيح أن عبد الله الحريف لم يُعَلّل بما فيه الكفاية بعض انتقاداته بِحُجَج كافية، أو موضوعية، أو مُقْنِعَة (مَثَلاً حينما إِتَّهم بعض قِوَى اليسار بِـ : «الذَّيْلِيَة» لِلنظام السياسي في قضية الصحراء الغربية، أو حينما إِتَّـهَـمَـهَا بِتُهْمَة «أنها ليست ضِدَّ المَخْزَن»، أو حِينَ كَتَبَ عَنْهَا أنها تُطَبِّقُ «خَطًّا سِيَّاسِيًّا يَمِينِيًّا»، إلى آخره). فإذا كان من حقّ النّاقد أن يَنْتَقِد بِحُرِّيَة، فَمِن الواجب عليه، في نَفْس الوَقت، أن لا يَطرح إلاّ الانتقادات التي يستطيع تَقْديم الحُجج المَوْضُوعية، والكافية عليها. (وَلَوْ تَطَلَّبَ ذلك تَطْوِيل المَقَال النَقْدِي المَعْنِي). كما يجب على المُنْتَقَد، مِن جِهَتِه، أن يَتَحَلَّى بِرُوح رِيَّاضِيَة، وَبِالتَّأَنِّي، وبالتواضع، وَبِالكِيَاسَة، وأن يقبل نِقَاش النَّقْد المُوَجَّه إليه، ولو كان شكل هذا النَقد مُخالفا نسبيًّا لِأَعْرَاف النّقد السّليم. لأن الغاية (لَدَى المناضلين الثوريّين) هي استمرارية التَوَاصُل، وَالتَأْثِير، وَالتَأَثُّر، والتَعَاوُن، وَالتَكَامُل، وَخَوْض النضال الجماهيري المُشترك.

5.7- صحيح أن رفاقنا المُحترمين: مُنْعِم أوحَتّي، ومحمد بوبكر، وادريس غازي، أَحَسُّوا بانتقادات الرفيق المحترم عبد الله الحريف كأنها تَهَجُّمَات تَحتوي على تَجْرِيح، أو إهانة، أو اِحْتِقَار، أو تَخْوِين. إِذْ نَعَتَ مُنْعِم أُوحَتّي عبد الله الحريف بِـ : «الضَحَالة»، و«القُصُور في التَفْكِير»، و«الصِبْيَانِيَة»، و«التَيَاسُر». ووصفه محمد بوبكر بِـ : «أَلْزُهَايْمَر السِيَاسي»، وَ«التَّعْوِيض عَن النضال». وَوَصَفُه ادريس غازي بِـ : «عَرْقَلَة الوحدة»، و«التَشْوِيش على المُؤتمر الْاِنْدِمَاجِي» فيما بَيْن أحزاب "فِيدِيرَالِيَة اليسار الدِيمُوقْرَاطِي".

5.8- إن كان من حقّ هؤلاء الرفاق (مُنْعِم أوحَتّي، ومحمد بوبكر، وادريس غازي) أن يردّوا على نَقْد عبد الله الحريف بِالأُسلوب الذي يُلَائِمُهُم، فَإِنّ هذه الأساليب العَدَائِيَة في تبادل النقد السياسي تَبْقَى مُوسفة، وسلبية، بَل ضَارَّة. وَلَيْس لَائِقًا أن نَصِف بتلك الأوصاف التَحْقِيرِيَة مُناضلًا مَعْرُوفًا بِتَوَاضُعِه، وَصَبْرِه، وطِيْبُوبَتِه، مثل عبد الله الحريف، الذي كرّس حياته للنضال الثوري في منظمة إلى الأمام ، وحُكم عليه بِـ 32 سنة سجنا، وقضى منها قُرابة 18 سنة داخل السجن، بمعنويات صامدة. وضحّى، وَمَا زال، بمهنته الأصلية. الشيء الذي لا يعني أنني أَنْكُر أن المناضلين الآخرين (من "حزب الطليعة")، الذين هاجموا عبد الله الحريف، هم أيضًا معروفون بنزاهتهم، وبإخلاصهم، وَبِغَيْرَتِهم. وتضحياتهم لا تَقِلُّ قيمةً عن تضحيات عبد الله الحريف. وَلَوْ أن الموضوع الذي يَهُمُّنَا هنا، هو تَبَادُل دِرَاسَة النَّقْدُ السياسي الجَيِّد، وليس هو المُقَارَنَة فيما بين قِيَم مُخْتَلَف المناضلين.

5.9- يَلزم أن نعترف أن كل هؤلاء المناضلين، سواء عبد الله الحريف من حزب النهج ، أم مُنْعِم أوحَتّي، أم محمد بوبكر، أم ادريس غازي، أو مَن شابههم، من مختلف قِوَى اليسار، وبالرّغم مِمّا قد يَصدر عنهم مِن هَفَوَات مِن فَترة لأخرى (مثلما يمكن أن يَصْدُرُ عَنّي أنا أيضا)، كلهم مناضلون معروفون بصدقهم، ونزاهتهم، وبأنهم كَرَّسُوا جزءًا هَامًّا من حياتهم للنضال، وأنهم ضَحّوا، وأنهم مَا زالوا صامدين في قناعاتهم، وفي مُسَاهَمَاتِهم الثورية. وَهذه القَنَاعَات الفكرية، والممارسات النضالية، التي تتوفّر لدى كُل هؤلاء المناضلين، هي أكبر بكثير مِن الخِلَافَات الجُزْئِيَة التي تُفَرِّقُهُم. وعليه، لَا نَقْبَل بأن يَغْرق هؤلاء المناضلين، أو مَن شابههم، في سُوء التَفَاهُم، أو في أَحْقَاد مُفْتَعَلَة، أو مُضَخَّمَة. وهذه التَفَاعُلَات السِلْبِيَة، هي نَفْسُهَا نَاتِجَة عن أساليب عَمَل قد تَتَّسِم بِقِلَّة المَهَارة (maladresse)، أو بِقَدْر مِن الطَّيْش، أو الْاِسْتِخْفَاف.

المَنْطِق المفقود في النّقد

6.1- في مجالات النِقَاش، أو النَّقْد، أو الصِرَاع السياسي، بين عِدَّة فَاعِلِين، يَرَى بعض الأشخاص فَقَط نُقْطَةَ اِتِّفَاقٍ، أو يَرَوْن فَقَط وُجود خِلَافَات، أو يَرَوْن فَقَط وُجُود سُوء تَفَاهُمَات. بينما في الواقع المَلْمُوس، تُوجَد في مُعْظَم الحالات، وفي نَفْس الوَقت، اِتِّفَاقَات جُزْئِيَة، وَسُوء تَفَاهُمَات، وكذلك خِلَافَات جُزْئِيَة، أو تَنَاقُضَات. وَإِذَا تَحَدَّثْنَا عن وُجُود اِتِّفَاقَات جُزْئِيَة بَيْن الفَاعِلِين المُتَصَارِعِين، فَهذا لَا يَعْنِي أننا نَنْفِي وُجُود خِلَافَات بينهما. وإذا تَكَلَّمْنَا عن وُجُود سُوء تَفَاهُمَات بين الفاعلين المُتصارعين، فهذا لَا يَعْنِي أن الخِلَافَات غير مَوجُودة بينهم. كما أنه إذا تَكَلَّمْنَا عن وُجود خِلَافَات، فهذا لَا يَعْنِي أن سُوء التَفَاهُمَات غير مَوْجُودة، أو أنه يَحِقُّ تَجَاهُلُهَا. بَل تَتَوَاجَد، وَتَتَزَامَن، في نفس الآن، اِتِّفَاقَات جُزْئِيَة، وَسُوء تَفَاهُمَات، وكذلك خِلافات. وكلّ نِقَاش، أو نَقْد، أو صِرَاع سِيَّاسي، يَتَطَلَّبُ مِنَّا مُعَالَجَة كُلّ سُوء التَفَاهُمَات، وكذلك الخِلَافات، والتَنَاقُضَات، بِالمَنَاهِج المُلَائِمَة لِكُلّ صِنْف مِنْها.

6.2- وبشكل أَعَم، يَرَى بعض الفاعلين إِمَّا وُجُودَ شيءٍ مُحَدَّدٍ، وَإِمَّا وُجُودَ نَقِيضِهِ. وَيَصْعُب على هؤلاء الفاعلين أن يَرَوْا، في نَفس الوقت، وُجُود الشَّيء، وَوُجُود نَقِيضِه. حيث يَصْعُب على عُقُول هؤلاء الفَاعِلِين أن يَرَوْا التَنَاقُضَات كما هي مَوْجُودة في الوَاقع. وَمِن بَيْنِهَا التناقُض المُتَجَلِّي في وُجُود الشيء، وفي وُجُود نَقِيضِه، وَلَوْ بِدَرَجَات مُتَفَاوِتَة.

6.3- كلّ نِقَاش بين فَاعِلَيْن أو أكثر (سَوَاءً كان ذَا طَبِيعَة ثَقَافِيّة، أم اِقْتِصَادِية، أم سِيَّاسِية)، يُؤَدِّي إلى اِكْتِشَاف، أو إلى الْاِصْطِدَام بِـ، آرَاء مُتَبَايِنَة، أو مُقَارَبَات مَنْهَجِيَة مُتَضَارِبَة، أو خِلَافات سِيَّاسية. وَكُلّ خِلَاف سِيَّاسي يَدْفَعُ إلى تَبَادُل النَّقْد السِيَّاسِي. وَكُلّ تَبَادُل لِلنَّقْد السِيَّاسي يَحْمِلُ في دَاخِلِه صِرَاعًا سِيَّاسِيًّا. وكلّ صِراع سياسي يَخْفِي في أَحْشَائِه صِرَاعًا طَبَقِيًّا. وَقَدْ يَظْهَرُ الصِرَاعُ الطبقي، حَسَب الفَتَرَات التَاريخية، على شَكْل أَنْمَاط، أو مُسْتَوَيَات، يُمكن أن تَكُون مُتَفَاوِتَة، أو مُخْتَلِفَة. وَكُلّ صِرَاع طَبَقِي يُعَبِّر عن تَنَافُس، أو عِرَاك، أو تَنَاقُض، بَيْن مَصَالِح فِئَات مُتَمَيِّزَة، أو بين طَبَقَات مُجْتَمَعِيَّة، تَتَصَارَعُ حول مَصَالِح مُتَنَاقِضَة. وكُلّ وَاحدة مِن بَيْن هذه الفِئَات، أو الطبقات المُجتمعية المُتَصَارِعَة، تكون إمّا مُحَافِظَة أو تَقَدُّمِيَة، وَإِمَّا سَائِدَة أو مَسُودَة، وَإِمَّا مُسْتَغِلَّة أو مُسْتَغَلَّة، وَإِمَّا حُرَّة أو مُضْطَهَدَة، وَإِمَّا ذَات إِمْتِيَازَات خَاصَّة أو مَحْرُومَة منها.

وَهَكَذَا، فإن كلّ خِلَاف فِكْرِي، أو نَظَرِي، أو سِيَّاسي، يَرْجِعُ، في عُمْقِه، إلى صِرَاع مُجتمعي حول مَصَالِح طَبَقِيَة مَادِيَة لَا يُمكن التَوْفِيق بَيْنَهَا.

6.4- في غالبيّة الحالات، يَنْسَى، أو لَا يُدْرِكُ، بعض الفَاعِلِين المُشَارِكِين في النِقَاش، أو في تَبَادُل النَّقْد، أو في خَوْض الصِرَاع السياسي، المَنْطِقَ النِسْبِي الذي يَتَحَكَّم في هذا الجِدَال. حيثُ أنه، في كلّ نِقَاش، أو خِلَاف، أو صِرَاع سِيَّاسي، يَظُنُّ كلّ فَاعِل أن رَأْيَه الشَّخْصِي مَبْنِيٌّ على أُسُس مَنْطِقِيَة خَالِصَة، أو على أُسُس عِلْمِيَة دَامِغَة. بَيْنَمَا العُنْصُر الأَسَاسي الذي يُحَدِّد المَوْقِف السياسي لِكُلّ فَاعِل، هو مَوْقِعُه الطَبَقِي في التَشْكِيلَة المُجتمعية المَعْنِيَة.

وَيَظُنُّ كلّ فَاعِل أن رَأْيَه الشَّخْصِي هو وَحْدَه الرَّأْي الصَّحِيح، أو الصَّائِب، أو المُحِقّ. وَيَنْسَى بَعض الأَطْرَاف، أو قَدْ لَا يُدْرِكُون، أن كلّ رَأْي مُحَدَّد، لَا يُمكن أن يَكُون صَحِيحًا إِلَّا في إِطَار مَنْظُومَة فِكْرِيَة مَرْجِعِيَة مُحَدَّدَة.

وَإِذا وَضَعْنَا رَأْيًا مُحَدَّدًا (يَفْتَرِضُ الشخص الذي يَحْمِلُهُ أنه صَحِيح)، في إِطَار مَنْظُومَة مَرْجِعِيَة أُخْرَى

(مُخَالِفَة لِلمَنْظُومَة الأُولَى المذكورة)، فإن هذا الرَّأْي سَيُصْبِحُ خَاطِئًا. وهكذا، فإن رَأْيَ مُفَكِّر مَلَكِي، سَيَكُون صَحِيحًا في إطار مَنْظُومَة فِكْرِيَّة أو قِيمِيَّة مَلَكِيَّة؛ لكنه سَيُصْبِحُ خاطئًا في إطار مَنْظُومَة فِكْرِيَّة أو قِيمِيَّة جُمْهُورِيَة. وَرَأْي مُفَكِّر مُحَافِظ، سَيَكُون صَحِيحًا في إطَار مَنْظُومَة فِكْرِيَّة مُحَافِظَة، لكنه سَيُصْبِحُ خَاطِئًا في إطَار مَنْظُومَة فِكْرِيَّة ثَوْرِيَة. وَرَأْي مُفَكِّر اِشْتِرَاكِي، سيكون صحيحا في إطار مَنظومة فِكرية اِشتراكية، لكنه سيصبح خاطئا في إطار مَنظومة فِكرية رَأسمالية، أو إمْبِرْيَالِيَة. وَمَا هُو مَشْرُوع، أو قَانُونِي، أو صَحِيح، طِبْقًا لِمَصَالِح الطَّبَقَات المُسْتَغِلَّة، سَيَكُون غير مَشْرُوع، أو غَيْر عَادِل، أو مَرْفُوض، مِن وُجْهَة نَظَر الطبقات المُسْتَغَلَّة.

وَهَكَذَا، فَإِنّ إِمْكَانِيَّات الْإِقْنَاع في الخِلَافَات السياسية (بِوَاسِطَة المَنْطِق الخَالِص وَحْدَهُ، أو بواسطة الحُجَج العِلْمِيَة) سَتَكُون ضَئِيلَة، أو مُنْعَدِمَة. لأن الخِلَافَات السياسية تَعُود في العُمْق إلى الصِرَاع حول مَصَالِح طَبَقِيَة لَا يُمكن التَوْفِيق بَيْنَهَا. وَفي هذه الصِرَاعَات السِيَاسِيَة، غَالِبًا مَا تَكُون الْإِعْتِبَارَات الْأَيْدِيُولُوجِيَة (الزَّائِفَة) مُسَيْطِرَة، وَمُغَيِّبَة، لِلْإِعْتِبَارَات المَوْضُوعِيَة، أو العِلْمِيَة.

وَفي واقع كُلّ مُجتمع طَبَقِي، لَا يُمكن مُعَالَجَة هذه الخِلَافَات، أو الصِرَاعَات، سِوَى عَبْر تَغَلُّب طَرَفٍ على الطَّرَف النَقِيض، وَفَرْض مَصَالِحِه عَلَيْه. فَلَا يُمكن التَوفيق بين مَصَالِح طَبَقَة المُسْتَغِلِّين ومَصَالِح طَبَقَة المُسْتَغَلِّين. فَإِمَّا أن تَفْرِض طَبَقَة المُسْتَغِلِّين دِكْتَاتُورِيَتَهَا على طبقة المُسْتَغَلِّين، وَإِمَّا أن تَفرض طَبقة المُسْتَغَلِّين دِكْتَاتُورِيتَهَا على طَبَقَة المُسْتَغِلِّين. وَإِذَا مَا وُجِدَ تَوَافُق بين هَاتَيْن الطَبَقَتَيْن المُتَنَاقِضَتَيْن، في مُجتمع تَارِيخِي مُعَيَّن، فإن هذا التَوَافُق سَيَكُون مُجرّد مَظْهَر مُؤَقَّت، أو غَيْر مُتَوَازِن، أو مُخَادِع، وَيُخْفِي (في تَفَاصِيلِه المُسْتَتِرَة) دِكْتَاتُورِيَة طَبَقِيَة فِعْلِيَة. وَهكذا، فإنّ «الدِّيمُوقْرَاطِيَة البُورْجُوَازِيَة» مثلًا، القَائِمَة في دُول أُورُوبَّا الغَرْبِيَة، وَأَمْرِيكَا الشَمَالِيَة، التي تَدَّعِي خَلْق تَوَافُق أَبَدِي بين طَبَقَات المُجتمع الرَّأْسَمَالِي، والمَبْنِيَة على أساس الانتخابات العامّة (لانتخاب الرئيس، والبرلمان، والجماعات المحلية، الخ)، هي في العُمْق دِيكْتَاتُورِية مُمَوَّهَة لِطَبَقَات المُسْتَغِلِّين الكِبَار، السَّائِدَة على طَبَقَات المُسْتَغَلِّين، وعلى بَاقِي المُجتمع.

6.5- كَثِيرُون مِن الأَشْخاص يَدْخُلون عَفْوِيًّا في نِقَاشَات صَاخِبَة، وَيَتَكَلَّمُون بِذَاتِيَة كَبِيرَة. وفي مُعْظَم الحَالَات، لَا يَعرفون مَا هُو النِقَاش الجِدّي، وَلَا ما هي قَوَاعِدُه، أو شُرُوطه، أو أَهْدَافُه. وَبِدُون وَعْي، يُمَارِسُون هذا النِقَاش كَمُبَارَزَة بين أشخاص ذَاتِيِّين، وَيَتَنَافَسُون على الغَلَبَة، أو الرِيَادَة.

الشّروط المطلوبة في النّقد

تَبَادُل النَّقْد السِّيَاسي فيما بين المناضلين، وفيما بين القِوَى السياسية التَقَدُّمية، والثورية، هو مِن ضِمْن أَهَمّ الوَسَائِل التي تُسَاعد هذه القِوَى على تَقْوِيم نَفْسِهَا، وَعلى تَلَافِ انْحِرَافِهَا، وَرَفع مُسْتَوَى فَعَالِيَّتِهَا. وَلِكَيْ يَكون النَّقْد مَقْبُولًا، وَبَنَّاءً، يَجب على الشَّخْص النَّاقِد أن يُمارس هذا النَّقْد السِيَاسِي، طِبْقًا لِمَنْهَج ثوري دَقِيق. وَأَهَمُّ قَوَاعِد هذا المَنهج هي التَّالِيَة :

7.1- يجب على كلّ شخص يُريد مُمارسة النَّقد السِّيَاسِي، أن يَعرف مُسْبَقًا، أن كُلّ نَقْد عَلَنِي، يُمكن أن يُصْبِحَ خَطِيرًا، أو قَاسِيًا، أو مُؤْلِمًا، لَدَى الشَّخْص المُنْتَقَد. لِذلك، تَتَطَلَّبُ مُمارسة النَقْد كِيَاسَةً كَبِيرةً في التَعَابِير، وَلَبَاقَة عَمِيقَة في اِخْتِيَار الكَلِمَات، وَحِكْمَة شَاسِعَة في التَفْكِير.

ولماذا لَا نَتَحَمَّلُ النَّقْد ؟ لأن طَبِيعَتَنَا كَبَشَر مُجتمعي، تَجْعَلُنَا نَطْمَح إلى الزِيَادَة في التَقْدِير الذي يَمْنَحُه لَنَا مُوَاطِنُو مُجتمعنا. كما تَدْفَعُنَا طَبِيعَتُنَا البَشَرِية إلى الرَّغْبَة في إعْلَاء قِيمَتِنا المُجتمعية، أو تَحُثُّنَا على إسْتِيَاق تَحْسِين مَكَانَتِنَا داخل المُجتمع. بَيْنَمَا تَعَرُّضُنَا لِلنَّقْد يُؤَدِّي إلى نَتَائِج عَكْسِيَة. حيثُ أن النَّقْد يُؤَدِّي، في غَالِبِيَة الحالات، إلى النَّقْص مِن قِيمَة الشَّخْص المُنْتَقَد في المُجتمع، أو إلى تَخْفِيض وَضْعِه في المُجتمع. ولأننا كَبَشَر مُجْتَمَعِي، وكأَشْخَاص مُنْتَقِدِين، لَا نَتَحَمَّل النَّقْد بِسُهُولة. بَلْ نُحِسُّ بِكُلّ نَقْد فَظّ، أو جَارِح (مُوَجَّه لَنَا)، كَهُجُوم عُدْوَانِي، (أو كما يُقال، نَشْعُرُ به «كَطَعْنَة غَادِرَة بِخَنْجَر في الظَّهْر»، أو «كَلَسْعَة أَفْعَى سَامَّة»). وَنَمِيلُ إلى الشُّعُور بِالنَّقْد كَتَخْرِيب لِذَاتِنَا الشَّخْصِيَة. وَيُمكن لِلنَّقْد الجَارِح أن يُثِيرَ قَلَقَنَا، وأن يُهَيْمِنَ على ذِهْنِنَا، وأن يَشْغَلَ بَالَنَا. وَقَدْ يُحْدِثُ هذا النَقْدُ فِينَا جُرُوحًا عَمِيقَة، وَمُؤْلِمَة. وَيُمكن أن تَبْقَى هذه الجُرُوح مُوجِعَة خلال أَمَد طَوِيل. كما يُمْكِن أن يُحِسّ الشَّخص المُنْتَقَد، أن مَنْ يَنْتَقِدُه يُرِيد اِحْتِقَارَه، أو الْإِسَاءَة لَه، أو التَعَالِيَ عَلَيْه، أو تَحْطِيم سُمْعَتِه، أو يُرِيد الإِنْتِقَاص مِن قِيمَتِه المُجتمعية (dévaloriser). وَقَد يَكُون رَدُّ فِعْل الشخص المُنْتَقَد هو كذلك ذَاتِيًّا، أو هُجُومِيًّا، أو عَدَائِيًّا. فَيَتَحَوَّل هذا النَّوْع مِن النَقْد الجَارِح المُتَبَادَل إلى صِرَاعَات مُعَقَّدَة، أو إلى رُدُود أَفْعَال ذَاتِيَّة، وَلَا مُنتهية. وَيَفْشِلُ هَكَذَا النَّقْد الفَظّ في تَحْقِيق هَدَفِه الأصلي، والذي هو إصْلَاح، أو تَقْوِيم، الشَّخْص المُنْتَقَد.

لكن في نفس الوقت، يَتَفَهَّمُ نِسْبِيًّا المُوَاطِنُون أن الحياة المُشتركة، في مُجتمع مُشترك، تُوجِبُ المُرَاقَبَة المُتَبَادَلَة، والنَّقْد المُتَبَادَل، والمُحَاسَبَة المُتَبَادَلَة، فيما بين مُجمل المُواطنين.

7.2- النَقْد المَقْبُول، أو المُفِيد، هو الذي يُرَكِّزُ على تَفْكِيك الأفكار المُخْتَلَف حَولها، أو يُحَلِّلُ السُلُوكِيَّات التي يُعِيبُهَا، وَيُوَضِّح البَدَائِل التي يَفْتَرِضُ فيها أنها سَلِيمَة أكثر، أو مُفِيدَة أكثر مِن غيرها. وذلك دُون الهُجُوم على الشَّخْص المُنْتَقَد، أو شَتْمِه، أو إهَانَتِه، أو اِحْتِقَاره. حيث أن النَّقْد البَنَّاء، هو الذي يَنْحَصِرُ في حُدُود نَقْد الأفكار أو السُلُوكِيَّات، دُون جَرْح، أو خَدْش، الشَّخْص المُنْتَقَد.

7.3- الهَدف الأَسَاسِي لِلنَّقْد هو إِفَادَة الشَّخص المُنْتَقَد، وَتَصْحِيح أَفْكَارِه، أو تَحْسِينُ سُلُوكِيَّاتِه، بِهَدَف تَحويله إلى شخص أَحْسَن، أو أَقْوَى، أو ذُو فَعَالِيَة أكبر في نَشَاطِه. وليس بَتَاتًا هَدف النَّقْد البَنَّاء هو تَحْطِيمُ الشخص المُنْتَقَد، أو الْإِسَاءَة إِلَيْه، أو الْإِنْتِقَام مِنْه، أو إِهَانَتُه، أو اِحْتِقَارُه، أو هَزْمُه، أو الـقَضَاء عليه.

7.4- لَا يَجُوزُ لِلشَّخْص المُنْتَقَد أن يُجِيبَ (عَلى النَّقْد المُوَجَّه إليه) عَبْرَ إِثَارَة قَضَايَا غَرِيبة، أو مُدْهِشَة، أو خَارِجة عن مَوْضُوع النَّقْد السياسي المَطْرُوح، وذلك بِهَدَف إِبْعَاد اِنْتِبَاه القَارِئ (أو المُستمع) عن الموضوع الأَسَاسي في النَّقْد، أو بِهَدَف إِخْفَاء الحَقَائِق الثورية المُحْرِجَة الواردة في هذا النَّقْد.

7.5- على كلّ مَن يُريد كِتَابَة مَقَال سِيَّاسِي نَقْدِي أن يُدْرِك، أنه يَسْتَحِيل كِتَابَة نَقْد جَيِّد، أو مُقْنِع، أو مُفِيد، في وَقْتٍ وَجِيز (قد يَدُومُ مثلًا نِصْف سَاعَة، أو نِصف يَوْم). وَمِن المُسْتَبْعَد أن يَكُون مَقَال نَقْدِي جَيِّدًا، إِذَا لَمْ يُعِدْ كَاتِبُهُ قِرَاءَة هذا المَقَال، أو مُرَاجَعَتَه، أو تَصْحِيحَه، أو تَحْسِينَه، خلال عَشَرَات المَرَّات. بَلْ كُلّ نَقْد جِدّي يَتَطَلَّبُ أَيَّامًا، أو أَسَابِيعَ، أو شُهُورًا، أو حتّى سَنَوَات، مِن الإِجْتِهَادَات الكَثِيرة، وَالأَبْحَاث المُتَعَدِّدة، وَالدِرَاسَات المُتَنَوِّعَة. وَلِكَيْ يَنْضُج الفِكْر في الذِّهْن، يَحْتَاج الدِّمَاغ إلى حَدٍّ أَدْنَى مِن الوَقت، يَقُوم خِلَاله بِجَمْع المُعْطَيَات الضَرُورِية، وَبِالتَأَمُّل فيها، والتَسَاؤُل حَوْلَها، وَبِرَبْط مُخْتَلَف المُعْطَيَات بِبَعْضِهَا، وَبِاسْتِخْلَاص الِاسْتِنْتَاجَات المُمكنة. فَمِن الأحسن لِمَن يَعْجِزُ على القِيَام بِهذا التَأَنِّي، أو الْإِجْتِهَاد، أن يَتَلَافَى دُخُول مَجال النَّقْد السِيَّاسِي العَلَنِي.

7.6- لِكَيْ يَكُون النَّقْد مُفِيدًا، أو بَنَّاءً، أو مَقْبُولًا، يجب أن تَكون كل جُملة أو عِبَارة وَارِدَة فيه، وَاضِحَة، وَمَدْرُوسَة، وَدَقِيقَة، وَمَضْبُوطَة، وَمُسْتَعْمَلَة بِمَنْطِق سَلِيم، وَمُعَلَّلَة بِحُجَج كَافِيَة، وَمُقْنِعَة. (أُنْظُر مقال رحمان النوضة، تحت عُنوان "فنُّ الكِتَابَة).

7.7- لَا يَحِقُّ لَنَا أن نَذْكُر، أو أن نَكْتُبَ، في النَّقْد، أَيَّةَ مَعْلُومَة، أو مُعْطًى، أو اِسْتِنْتَاج، أو اِقْتِبَاس، إذا لم نَذْكُر بِدِقَّة المَصَادِرَ المُسْتَعْمَلَة، أو الوَثَائِق المُعْتَمَدَة. والأشخاص الذين يُعِيدُون كِتَابَة الأَفْكَار، أو المَعْلُومَات، التي سَبَقَ لهم أن قَرَأُوها لَدَى كُتَّاب آخرين، دُون ذِكْر المَرَاجِع التي قَرَأُوا فيها هذه الأفكار أو المَعلومات، يُصْبِحُون مُتَّهَمِين بِسَرِقَة أَفْكَار غيرهم.

في كلّ مَعْلُومَة، أو تَصْرِيح، أو حُكْم، أو اِتِّهَام، ذَكَرَه الشَّخْص النَّاقِد دَاخل نَقْده، يجب عليه أن يَذْكُر المَصَادِر التي اِعْتَمَدَ عليها، أو المَرَاجِع التي اِسْتَعْمَلَها. كَمَا يَجِبُ عليه أن يُحِيلَ القَارِئَ (أو المُسْتَمِع) إلى النُصُوص، أو الوَثَائِق، التي اِسْتَنَدَ عَلَيْهَا. وَإِلَّا أصبح كَلَام هذا النَّاقِد مُخَالِفًا لِقَوَاعِد الكِتَابَة والنَّشْر. وَسَيَتَحَوَّلُ كَلَام هذا النَّاقِد إلى مُجَرَّد ثَرْثَرَة، بِلَا قِيمَة، وَلَا فَائِدَة.

7.8- لَا يَحِقُّ لَنَا أن نَتَّهِمَ الشَّخْص الذي نَنْتَقِدُه بِأَيَّة تُهْمَة (كَيْفَ مَا كَان نَوْعُهَا) إذا لَم نُقَدِّم حُجَجًا وَاضِحَة، وَدَقِيقَة، وَمَضْبُوطَة، وَمُعَلَّلَة، وَمُوَثَّقَة، وَقَابِلَة لِلْمُرَاقَبَة.

7.9- رَغْمَ أنّ النَّقْد السِيَّاسِي، أو الإعْتِرَاض، أو التَعْبِير عَن الخِلَاف في الآرَاء، هو حَقٌّ مِن بين الحُقُوق الدِّيمُوقراطية، وَمِن ضِمْن حُقُوق الإِنْسَان، فَإن مُمَارَسَة حَقّ النَّقْد سَتُرْفَضُ كُلَّمَا مُورِسَتْ بِأُسْلُوب فَظّ، أو اِحْتِقَارِي، أو عَدَائِي. وَسَيَتِمُّ الرَدُّ عليها بِأُسْلُوب أَكْثَرَ عُنْفًا، وَتَهَوُّرًا، وَخِفَّةً، وَعَدَاءً. وفي هذه الحالة، سَيَفْشِلُ هذا النَّقْد في بُلُوغ مُبْتَغَاه (والذي هُو تَحْسِين الشَّخْص المُنْتَقَد). وَفي هذه الحالة، قَد تُصْبِح العادة الشَّائِعَة، هي أن المُواطنين المَعْنِيِّين، سَيَمْتَنِعُون حَتَّى عن التَعْبِير عن مَشَاعِرِهِم، وعن اِعْتِرَاضَاتهم، أو اِحْتِجَاجَاتهم، وَذلك بُغْيَةَ تَلَافِي مَشَاكِل غير مَرْغُوب فيها. وَقَد يَمْتَنِعُون حتّى عن طَرْح اِقْتِرَاحَاتِهِم. أَمَّا إذا مُورِسَ النَّقْد السِيَاسِي بِمَنْهَج يحتوي على قَدْر كَافٍ مِن الاحترام، وَالكِيَاسَة، وَاللَّبَاقَة، والجِدِّيَة، والدِقَّة، فَإن هذا النَّقْد سَيُصْبِح مُتَحَمَّلًا، أو مَفْهُومًا، أو مَقْبُولًا، أو نَاجِحًا في مَجَال مُسَاعَدَة الشَّخْص المُنْتَقَد على إصْلَاح نَفْسِه.

7.10- بِمَا أن مَوْضُوعَنَا هو خُصُوصًا تَبَادُل النَّقْد السِيَّاسِي فيما بَيْن المُناضلين المُتَنَوِّعين، وَفيما بَين قِوَى اليسار المُخْتَلِفَة، يجب على كلّ نَاقِد يَوَدُّ نَشْرَ نَقْدِه، أن يَتَذَكَّر أنّه يَتَكَلَّم في سَاحَة عُمُومِيَة، مَفْتُوحَة، تَحْتَ أَنْظَار،

أو عُيُون، أو رَدَارَات، الأَجْهِزَة القَمْعِيَة، شَبَكَات المُخَابَرَاتِ، الدَّاخِلِيَة والأَجْنَبِيَة (بما فيها الإسرائيلية، في إطَار «التَطْبِيع» المَفْرُوض مع إسرائيل). فَلَا يُقْبَل في النَّقْد أن تُؤَدِّيَ الرَّغْبَة في تَصْفِيَة الحِسَابَات (بَين النَّاقِد والمُنْتَقَد) إلى إفْشَاء الأَسْرَار السياسية لِأَيِّ طَرَف كان. وَالنَّقْد هو تَحْلِيل لِأَفْكَار، وَتَقْيِيم أُطْرُوحَات فِكْرِيَّة بَدِيلَة، يُفْتَرَضُ فيها أنها أكثرُ إفَادَةً. وَلَا يَجُوز في النَّقْد أن يُعَرِّضَ الشَّخْصَ المُنْتَقَدَ إلى أَخْطَار القَمع السياسي الاستبدادي.

وَلَا يُسْمَحُ بِأَنْ يَتَحَوَّلَ النَّقْدُ إلى وِشَايَة، أو إلى فَضْح، يُرِيد سِرًّا تَعْرِيض الشَّخْص المُنْتَقَد إلى إنْتِبَاه الأجهزة القَمعية، أو إلى بَطْشِهَا. فَيَجِبُ على كلّ نَقْد مَنْشُور، أن لَا يَتَضَمَّن أَيَّةَ مَعْلُومَات، أو أَسْرَار، سَوَاءً كانت فَرْدِيَّة أم جَماعيّة، مُبَاشِرَة أم غير مُباشرة، يُمكن أن تُفِيد العَدُوَّ الطبقي، أو الأجهزة القَمْعِيَة، أو المُخَابَرَاتِيَة.

تِلْكَ هِي الشُّرُوط المَطْلُوبة في كلّ نَقْد يُرِيد أن يَكُون بَنَّاءً. وَمِن البَدِيهِي أنه يَتَوَجَّبُ في كلّ رَدّ على أيّ نَقْد سِيَّاسِي، أن يَحْتَرِمَ، هُو أَيْضًا، هذه الشُّرُوط، لِكَيْ يَكُون هذا الرَّدُّ مَقْبُولًا، وَمُفِيدًا.

المَنْهَج المَرْجُوّ في النَقد السياسي

8.1- المُرْتَجَى، من كِلَا الطّرفين، النَّاقِد وَالمُنْتَقَد، هو أن يَحْرُصُوا على خَوْض النِقَاش، أو النَّقْد، أو الصِرَاع السياسي، بِأَكْبَر قَدْر مُمْكِن مِن المَوْضُوعِيَة، دون إهْمَال شَكْلِ هذا النَّقْد، ودون التهجّم، لَا على شخص النَّاقِد، ولاَ على شخص المُنْتَقَد. وَلَوْ أَنَّنَا نُدْرِكُ أن هذا «النِقَاش بِمَوْضُوعِيَة»، هُو صَعْبٌ علينا جَمِيعًا. وَكُلّ واحد مِنَّا له ذَاتِيَّاتُه الخَاصَّة به. وكان يَنْبَغِي على هؤلاء المناضلين أن يُثْبِتُوا كُلّهم، وَبِالحُجج المَوْضُوعية، خطأ انتقادات الطَّرف الآخر، إنْ كانت خاطئة.

وَلَا يَسَعُنَا هُنَا سِوَى أن نَتَمَنَّى زَوَال مُخلّفات تِلْك الحَزازات التاريخية القديمة، المَوْجُودَة (في المغرب) فيما بَين المُناضلين المُنْحَدِرين مِن المدرسة الإتِّحَادِيَّة [نِسْبَةً إلى "حزب الاتحاد الوطني لِلقُوَّات الشَّعْبِيَة"]، والمناضلين المَحْسُوبِين على المدرسة الشِيُوعِيَة [نِسْبَةً إلى "الحَرَكَات الماركسية اللّينينية].

8.2- تَقْتَضِي النَزَاهَة أن أَعْتَرِف أن تَقاليد النَّقْد التي تَرَبَّى عليها جِيلُ المناضلين الذين هُم مِن سِنِّي في المغرب، أي الذين عَاشُوا تجارب الحركات الماركسية اللينينية، أو في مَا شَابَهَهَا مِن الأحزاب الشيوعية، أو اليسارية، أو السْطَالِينِيَة (stalinien)، بَيْنَ سنوات 1965 و 1980، كانت في جزء هَامّ منها، تتّسم بالمُبالغة في الحَمَاس، أو بِالعَصَبِيَة الحِزْبية، أو بالانفعالات الذَّاتية، أو بالاستخفاف بإصدار الأحكام الجاهزة، أو بِشَيْء مِن القَساوة في المُعَامَلَات السياسية، أو بالاتّهامات السَّرِيعة وَالسَاحقة، أو بالتَصْنِيفَات المُطلقة، وأحيانا بِالتَحْقِير، أو التَخْوِين. وَكُنَّا (أو قَدْ نَكُونُ مَا زلنا) لا نعرف جَيِّدًا كيف نَتَعَامَل مع التَنَاقُضَات الثَانَوِيَة المَوْجُودَة في صُفوف الشعب. وَكُنَّا أحيانًا نُغَلِّبُ التناقضات الثانوية على التناقض الأساسي، أو على التناقض الرئيسي. وكنّا نُوَزِّع بسهولة كبيرة اتهامات «اليَمِينِيَة»، أو «الإنْحِرَاف»، أو «التَراجع»، أو «الرّجعية»، ضدّ رفاقنا في النضال الجماهيري المُشترك، الذين كَانُوا يُخالفوننا في بعض القَضَايَا الجُزئية.

8.3- في سنوات 1970، و 1980 م، ساهمتُ أنا أيضًا بِحَمَاس شَبَابِيّ في مثل هذه الأساليب. لكنني تعلّمتُ، فيما بَعد، مِن تجاربي الشّخْصِيَة، أن هذه الأساليب القاسية في النَّقد السياسي، فيما بين المناضلين الثوريّين، تُسِيءُ أكثر مِمَّا تَنْفَع. فَأَقْلَعْتُ عنها.

8.4- يُمكن للقارئ أن يجد مُحَاوَلَة أَوَّلِيَة لِتَطْبِيق نَوعية النَّقْد المَرْجُو، في كِتَابِي (المَنْشُور على الإنْتِرْنِيت، منذ سنة 2012 م) تحت عنوان «نَقْد أحزاب اليسار بالمغرب». ورغم طول هذا الكتاب في صِيغَتِه رقم 60 المُحَيَّنَة (قرابة 300 صفحة مِن الحَجْم المُتَوَسِّط.

6/15/ نقد-أحزاب-اليسار-بالمغرب/)، ورغم ثِقَل وَزْن الانتقادات السياسية الموجودة في هذا الكتاب، والمُوَجَّهَة إلى مختلف قِوَى اليسار بالمغرب، فَقَد حَاوَلْتُ قَدْرَ المُسْتَطَاع (في هذا الكتاب) تَلَافِيَ اِستعمال عبارات مُسْتَخِفَّة، أو جَارحة، أو مُهينة، أو عَدَائِيَّة. وَرَغْمَ ذلك، مِن المُمكن أن تَكُون بعض التَعَابِير غَيْر اللَّبِقَة قَد فَلَتَتْ مِن مُرَاقَبَتِي. وَإِنْ وُجِدَت في كتابي مثل هذه العِبَارات غَيْر المَاهِرَة، أَعْتَذِرُ مُسْبَقًا عليها. لأن نِيَّتِي الأَصْلِيَة هي فقط النَّقْد والإفَادَة، وليست هي التَعَالِي، أو التَكَبُّر، أو الإهَانَة، أو التَجْرِيح. ورغم أن هذا الكتاب يُجَسِّدُ مَجْهُودًا في مَجَال النَّقْد السياسي، فإن بعض قِوَى اليسار بالمغرب، تَجَاهَلَتْه، أو لَمْ تَهْتَم به بما فيه الكِفَايَة.

8.5- سبق لِي أن كَتَبْتُ ونشرتُ، أنني غير راض عن أوضاع قِوَى اليسار بالمغرب. وَلِتَلَافِي أَيّ سُوء تَفَاهُم، أُكَرِّرُ في كلّ مُناسبة، أنه رَغْمَ الإنْتِقَادَات التي أُوَجِّهُهَا إلى قِوَى اليَسَار بالمغرب، فَإِنَّنِي أُقَدِّرُ كلّ هذه القِوَى، وأحترمها، وأعتبر أنها كُلَّها مُتَكَامِلَة، وَضَرورية، لِخَوْضِ النِضَالَات الجماهيرية المُشْتَرَكَة. وفي نفس الوقت، يجب أن نَتَذَكَّر أنّ الاحترام المُتبادل، لَا يُلْغِي النَّقْد المُتبادل. وأن هَدَف النَّقْد هو إصْلَاح، أو تَقْوِيم، الشَّخْص المُنْتَقَد، الذي هُوَ مُقَصِّر، أو مُخْطِئ. وأطمحُ إلى المُساهمة في تَقْرِيب قِوَى اليسار من بعضها البعض. وَأَعْمَل مِن أجل تَعاونها، وَتَكَامُلِها، وَإِسْهَامِهَا في مُجمل النضالات الجماهيرية المُشتركة. ورغم أنني مُقْتَنِع بضرورة، وَإِلْحَاحِيَة، تَبادل النَّقد المَكْتُوب، والرَّزين، فيما بين مُجمل قِوَى اليسار، فإنني أَحُثُّ كلّ هذه القوى على الحِرص الشَديد، على أن يَظَلّ هذا النَّقد المُتبادل، مُلتزمًا بالجِدِّيَة، وبالمَوْضُوعية، والحِيَاد، والدّقة، والنزاهة، والاحترام المُتبادل. لأن هدف النَّقْد الثوري، هو مُساعدة الشَّخص المُنْتَقَد على تَحْسِين أداءه. وليست غاية النّقد هي هَزْم المُنْتَقَد، أو القضاء عليه! وأتمنى أن تُنَظِّم قوى اليسار، في المستقبل، لِقَاءَات، وَحِوَارَات، فيما بين مَسؤولين، وَأُطُر، ومناضلين، من مختلف قِوَى اليَسَار، لِخَوْض جِدَالَات صَريحة، وَرَزِينَة، حول مُجمل إشكالات النضال الثوري بالمغرب.

8.6- ماذا نَفعل في حالة حُدُوث خِلافات سِيَّاسية فيما بين قِوَى اليسار؟ هل نَتَجَاهَل هذه الخلافات النَظَرِيَة، أو السِيَاسِيَة، أو الخُلُقِيَة ؟ هل نَنْكُرُ وُجُودَهَا؟ هَل نُحَوِّل هذه الخِلَافات إلى "طَابُوهَات" تُحَرِّمُ الكَلام حَولها ؟ هل نَتجاهل حتى مُختلف مُكَوِّنَات اليسار التي تُخالفنا في بعض القَنَاعَات السياسية ؟ هَل نَستَعمل هذه الخلافات السياسية كَمُبَرِّرَات لِمُعَادَاةِ كُلّ مَن يَحمل قَنَاعَات مُخالفة لِقَنَاعَاتِنَا ؟ هَل نَمْتَنِعُ عَن مُمارسة النَّقْد ضِدَّ الآرَاء المُخالفة لِآرائنا، وذلك بِحُجَّة تَلَافِي إثَارَة حَزَازَات ذَاتِيَة لَدَى الأَشْخَاص المُنْتَقَدِين ؟ هَلْ نَمْتَنِعُ عن نَقْد الطَّرَف الذي يُخَالِفُنَا، وذلك بِدَعْوَى أنّ «هذا النَّقْد سَيُعْطِي إلى ذلك الطَّرَف الآخر (المُخَالِف لَنَا) أَهَمِّيَة لَا يَسْتَحِقُّهَا»؟ هَلْ نَنْضَبِطُ لِكُلّ فَاعِل سِيَاسِي يَمْنَعُ عَنَّا نَقْدَهُ ؟ أَلَيْسَ كُلّ مُواطن، وَكُلّ فَاعِل سِيَّاسِي، مُجْبَرًا على الخُضُوع لِلْمُرَاقَبَة، وَلِلْمُحَاسَبَة، وَلِلنَّقْد، بِسَبَب عَيْشِه دَاخِل مُجْتَمَع مُشْتَرَك ؟ وَفِي رُدُودِنَا النَّقْدِيَة، هل نَرُدُّ على تَعَنُّتِ بعض المُخالفين لَنَا بِتَعَنُّت أكبر؟ هَل نَطْلُقُ العِنَانَ لِلتَحَدِّي، وَلِلشَّتْم، أو لِلْقَدْح، لِتَفْرِيغ مَشَاعِر كُرْهِنَا لِلْمُخَالِفِين، أو لِلْخُصُوم، أو لِلْمُنَافِسِين ؟ هل الخَوف من تَعقيدات النضال المُشترك يُبرّر التركيز على ذَاتِنَا ؟ هَل الإحْتِيَاط المُفْرِط يُبَرِّرُ تَجاهل كلّ مَن إخْتَلَفَ مَعنا؟

8.7- ألاَ تَسْتَوْجِبُ الحِكمة التَخَلُّص من نَرْجِسِيَتِنَا، ومن العَصَبِيَة الحِزْبِيَة الضَيِّقَة، والقَبُول المُتَوَاضِع بِالْحِوَار، وبالاختلاف، وَبِالتَعَدُّد، وَبِالتَكَامُل، والاحتكام إلى جُمهور المُناضلين الثَّوْرِيِّين النَزِيهين ؟ هل يُعْقَل أن نَسْتَغْنِيَ عن النَّقْد السياسي المُتبادل؟ وهل تُوجد وَسيلة أخرى، غير تَبادل النَّقْد الرَّزِين، لِتَحقيق التَفاهم، والتَقارب، والتَأْثِير، وَالتَأَثُّر، والتَكَامُل، والتَعَاوُن، فيما بين مُخْتَلَف قِوَى اليسار؟

8.8- رَغْمَ أن النَّقْد يَفْضَحُ نَقَائِصَنَا (عندما نَكون مُنْتَقَدِين)، أو يُبْرِزُ أَخْطَائَنَا، أو يُعَرِّي عُيُوبَنَا، يَتَوَجَّبُ علينا أن نَبْذُلَ كلّ المَجْهُودَات اللَّازِمَة لِتَحَمُّلِه، أو لِتَقَبُّلِه، أو لِلتَّفَاعُل معه بِأَكْبَر إيجَابِيَّة مُمْكِنَة. لأن تَعَرُّضَنَا لِلنَّقْد، لَا يَنْقُصُ مِن قِيمَتِنَا المُجتمعية، بَلْ سَيُوَفِّرُ لَنَا إمْكَانِيَّة تَكْمِيل نَقَائِصِنَا، أو إمكانية تَصْحِيح أَخْطَائِنَا، أو تَحْسِين فَعَالِيَّتِنَا.

فَلَا يَجوز لأي نَقد مُتبادل بين قِوَى اليسار، أن يَنْسَاق نَحو التَسَرُّع، أو الإسْتِخْفَاف، أو العَصَبِيَة الحِزبية الضَيِّقَة، أو الإحْتِقَار، أو الكَرَاهِيَة، أو الرَّغْبَة في تَصْفِيَة الحِسَابَات الشَّخْصِيَة الذَّاتِيَة. فإما أن يَكون النَّقْد السياسي مُعَمَّقًا، وَمَنْطِقِيًّا، ومُعَلَّلاً، وَمُقْنِعًا، وإما أنه سَيَبْقَى مُجرّد تَصْنِيفَات إعْتِبَاطِيَة، تُسِيءُ أكثر مِمّا تُفِيد.

أَهْدَاف النَقد السِيَاسِي

في مَعْرِض هذا المقال، سَبَقَ أن أَشَرْنَ، بِشَكْل عَابِر، إلى بَعْض أهداف النَّقْد السِيَاسِي. لكن ما هي أهداف النَّقد، بِشَكْل دَقِيق، وَشُمُولِي؟

أهداف الحِوار، والنِقَاش، والنَّقْد، والصِراع السياسي، هي تَدْبِير الخِلافات، وَتَصْحِيح الأَخْطَاء، وَتَقْوِيم الإنْحِرَافَات، وَبِنَاء أُسُس النِضال الجَمَاهِيرِي المُشترك، وَتَلَافِي الاستبداد، وَتَفَادِي الانفراد بالقرار، وفرز الآراء الأكثر عَقْلَانِيًّا، وَمُنَاصَرَة البَرَامِج التي هي أكثر عَدْلًا، أو تَقَدُّمًا، أو صَوَابًا، أو إنْتَاجِيَةً، أو ثَوْرِيَّةً. ونوع النَّقْد المطلوب فيما بين قوى اليسار، هو أن يكون جِدِّيًا، وَدَقِيقًا، وَمُعَمَّقًا، وَمُعَلَّلاً، وَمَوضوعيا، وَمُحايِدًا، وَمُقْنِعًا، وَمُلْتَزِمًا بالاحترام المُتبادل، وَمُرَاعِيًا لِلْحَسَاسِيَّات، وَمُعْتَبِرًا لِلذَّاتِيَّات، وَحَرِيصًا على صِيَانَة خُطُوط خَوْض نِضالات جماهيرية مُشتركة في الحَاضر، وفي المُستقبل.

وَمَعْنَى ذلك هو أن الشخص الذي يَنْتَقِدُك، لَا يُرِيد لك سِوَى الخَيْر. لأنه يُرِيد مِنْك أن تُرَاجِعَ بعض أفكارك، وأن تُحَسِّنَ بعض سُلُوكِيَّاتِك. وَيَحُثُّك النَّاقِدُ على أن تُصْبِح أَكْثَر فَعَالِيَّة مِمَّا كُنْتَ عليه في السَّابِق. وَيَرْجُو ضِمْنِيًّا مِنْك النَّاقِد أن تَتَقَرَّبَ منه، وأن تَتَعَاوَن مَعَه، وَأن تَتَكَامَلَ مَعَه، بِهَدَف خَوْض وَإِنْجَاح أَكْثَر مَا يُمكن مِن النِضَالَات الجَمَاهِيرِيَة المُشْتَرَكَة.

وَلَوْ كان حَقِيقَةً الشَّخص الذي يَنْتَقِدُك يُرِيد لك الشَرَّ، لَفَضَّلَ السُّكُوتَ عن نَقَائِصِك وَأَخْطَائِك، التي سَتُؤَدِّي

بِك حَتْمًا إلى التَعثُّر، ثُمَّ الفَشَل. وَإذَا أَقْدَمَ نَاقِدٌ على نَقْدِكَ، فَهَذا النَّقْد يَعْنِي أنّ الشَّخْص النَّاقِد فَضَّلَ أن يُضَيِّعَ جُزْءًا مِن وَقْتِه أو طَاقَتِه، في مُحَاوَلَة الكَشْفِ عن نَقَائِصِك، أو أَخْطَائِك، وَأَنَّهُ أَرَادَ أن يَقْتَرِحَ عليك البَدَائِل التي هي أَكْثَرُ سَدَادًا، والتي ستُؤَدِّي بك، في حالة الاستفادة منها، إلى تَحْسِين إنْجَازَاتِك وَإنْجَاحِهَا.

وَحِينَمَا نَنْتَقِدُ شَخصًا مُعَيَّنًا، أو حِزْبًا مُحَدَّدًا، فَإنّنا نُرِيدُ مِنْه أن يُشَارِكَ مَعَنَا في خَوْض النِضَالات الجَماهيرية المُشتركة، مِن أجل إنْجَاز الطُمُوحَات المُجتمعية المُشْتَرَكَة.

وَالنَّقْد الجَيِّد، أو المُفِيد، يَسْتَمِدُّ جَوْدَتَه مِن كَوْنِه ثَوْرِيًّا، وَيَهْدِف إلى تَثْوِير العَلاقات السِيَّاسِيَة المُجتمعية، وَعَلاقَات الإنْتَاج، القَائِمَة فيما بَين المُواطنين.

وَسَوَاءً كان النَّقْد مُوَجَّهًا إلى شخص، أم إلى جَمَاعَة، يَنْبَغِي أن يَكون هَدَف النَّقْد، ليس هو عَزْلُ الشّخص المُنْتَقَد، أو هَزْمُهُ، أو تَحْطِيمُ سُمْعَتِه، بَلْ يجب أن يَكون هدف النَّقْد هو إحداث التَّفَاهُم مع الشَّخص المُنْتَقَد، وَمُساعدته على إدْرَاكِ نَقَائِصِه، وَحَثُّهُ على تَقْوِيم نَفْسِه.

وَيُشْبِهُ النَّقْد السياسي الدَّوَاء المُرّ. وَرَغْمَ مَرَارَة النَّقْد (الدَوَاء)، فإن هَدَفه هو مُعَالَجَة المَرِيض، وليس هَدَفُه هو القَضَاء على المَرِيض، رَغْبَةً في التَخَلُّص مِن المَرَض.

وَهَدف النَّقْد هو أيضًا التَقَرُّب من الشَّخْص المُنْتَقَد، والتَكَامُل معه، والتَعَاوُن معه، وَدَفْعُهُ إلى تَحْسِين كَفَاءَاتِه، وَتَجْوِيد فَعَالِيَّاتِه، وَخَوْض النضال الجماهيري المُشترك معه، بِهَدَف إنْجَاز الْإنْتِصَار المُشترك، لِلثَّوْرَة المُجتمعية المُتَوَاصِلَة. ❑❑

حدائق الليمون

دلور ميقري
سورية

❑ طوال شهر رمضان، سيبقى " كمال " بدون مَورد. المقهى، أينَ كان يعملُ نادلاً، لن يستقبل الزبائن قبلَ حلول العيد. لقد صرفه صاحبُ المقهى، يومَ أمس، مع بقية زملائه، حتى دونَ أن يهنئهم بقدوم الشهر المبارك.

" رجلٌ جشع، برأس خنزير، رائحة عرقه كريهة دوماً بسبب جلسته الأبدية وراء الصندوق "، فكّرَ الفتى بحنق حينَ استدعى صورةَ معلّمه. هذا الأخير، كان يوظفُ أمواله في شتى الأعمال، لكنه لا يتحرّج من الاستيلاء على نصف البخشيش، الذي يتلقاه النُدُل من روّاد المقهى. معاملته لهم، فوق ذلك، كانت سيئة؛ وكما لو كانت تشعره بمتعة خاصة.

ثقلُ تلك الاستعادات المزعجة، عليها كان أن تخفف من شهية كمال حينَ حلّت ساعة الإفطار. اكتفى بقضم بضع حبات تمر (تيمناً بسنّة النبيّ)، وبشرب حساء الحريرة. والدته، قطعت شكواها المعتادة من غلاء المواد الغذائية، لترقبه بقلق لما نهضَ مغادراً طاولة الطعام. قالت له معتذرة: " صدّعتُ رأسك بكلامي، أليسَ صحيحاً؟ "

" لا، ليسَ كذلك "، أجابَ مشفقاً على مشاعرها فيما كان يُشعل سيجارةً. غير أنّ كلامها، جعله يفكّرُ حقاً، كيف ستتدبر أمرَ معيشتهم في خلال شهر رمضان. ففي غمرة الغلاء المفاجئ (المتأثر به المغرب كباقي دول العالم)، ربما سيتبخر راتبُ تقاعد والده الراحل في غضون أسبوعين. لكنه كي يُبدد قلقَ والدته، وهما في مفتتح الشهر الكريم، أظهرَ البشاشة فيما كان يصبّ الشاي، المطيّب بأعواد النعنع الطرية. عبقُ الشاي وطعمه اللذيذ، جعلاه منفتحاً على ما سيجود به جهازُ التلفاز من برامج متنوعة، مخصصة للمناسبة السعيدة. " دوزيم "، القناة المَحليّة المُفضلة لوالدته، كانت في الأثناء تعرضُ إعلاناتٍ لا يُمكن أن تهمّ سوى أصحاب الدخل العالي. مع مرور الوقت، شعرَ بالخدر يتسلل إلى رأسه، فعمد إلى الاستلقاء على الأريكة. كان قد افاقَ باكراً هذا الصباح، مثلما هيَ عادته في أيام العمل. بيدَ أنه صممَ على مجافاة النعاس، كونه عازماً على قضاء بعض الوقت في مقهى الزنقة، المطل على الشارع العام.

ما لبثَ كمال أن رأى نفسه في ذلك الشارع، المعروف ب " حدائق الليمون "، تيمناً بأشجار الحمضيات، المغروسة بانتظام على جانبيه. بدا الشارعُ مقفراً، فتساءلَ بدهشةٍ ما إذا كانت الساعة متأخرة إلى هذا الحدّ. مع ذلك، مضى في طريقه إلى المقهى، وكان لا يغلق أبوابه حتى ساعة السحور. ثمة عند ناصية الشارع المُتصالب، مرّ بالقرب من الدكان الكبير، الذي يحملُ اسمَ صاحبه، " الحاج عبد السميع "؛ وهوَ رجلٌ عجوز نوعاً، يُقال أنه يقتفي بهيئة المشايخ لتمويه ما يقترفه من غش بحق الزبائن. واجهة الدكان، كانت مزينة كأنها إحدى صالات الأفراح، المزدهرة صيفاً. مقفراً أيضاً كان الدكان، ولاحَ صاحبه مشغولاً بتنضيد بعض الصناديق قبل موعد الإغلاق، وربما لم ينتبه لمرور الفتى على الرصيف المقابل.

" إنه في طريقه إلى نفس المقهى، أينَ موقف دراجته النارية "، قال كمال في نفسه فيما كان يدحضُ فكرةً طارئة راودته. لكن الفكرة كانت عنيدة، لا تبغي مغادرة رأسه: " طريقه يمرّ بدربٍ عتم، وهناك تفاجئه والمطوى بيدك؛ ثم تسلبه ماله! ". الفكرة كانت مغرية وطاغية، بحيث أن قدميه سارتا فعلاً بأثر التاجر العجوز. غندما غرقَ أخيراً شبحُ هذا الأخير في العتمة، تهيأ كمال للانقضاض عليه بأن خلع قميصه الخفيف وجعلَ منه لثاماً.

" ضع المالَ في يدي وتابع طريقك، لو أردتَ النجاة بروحك "، حاطبَ الرجلَ العجوز بلهجةٍ كانت غريبة على سمعه. بدَوره كان الليلُ غريباً على كمال في تلك الهنيهة، بما تفاوت فيه من النور والظلمة. كان سيُدرك هذه المفارقة المحيّرة، لو أنه رفع رأسه إلى السماء ورأى السحبَ وهيَ تمارس لعبتها المعهودة مع الكواكب والنجوم. لكنه كان مركّزاً تفكيره كليّةً بضحيته، لدرجة أنه لم ينتبه لارتجاف يده القابضة على المطوى. بدون نأمة، دسّ التاجرُ يده في جيب معطفه الداخليّ وأخرجَ حافظةً جلدية صغيرة. تناولها كمال ثم تراجع خطوةً، لكي يتحسس محتوياتها. لما اطمأنَ لوجود رزم المال، فإنه لوّح المطوى مجدداً بوجه العجوز: " هيا اذهب ولا تلتفت إلى الخلف"

" سأذهبُ، يا بني، لكنني أود أن أجزيك نصيحةً لوجه الله "، قالها العجوز ثم أضاف بسرعة: " لن تهنأ بهذا المال، لأنك سرقته في ليلة رمضان. لقد فعلها آخرون قبلك، وعاقبهم الله بشل أيديهم ". أطلق كمال ضحكة ساخرة، وردّ بالقول: " أنتَ سرقتَ زبائنك في جميع أشهر رمضان، وقد ترك الله يدك سليمةً لكي تسلمني بها هذا المال ".
نسمة باردة، محمّلة بعطر أزهار شجيرات " حدائق الليمون "، عليها كان أن توقظه. رفعَ رأسه من على الأريكة، أينَ كان متمدداً بدون غطاء، فهرَبَ ذلك العطر. كانت أمه تنظر إليه بحنو، وهيَ في مكانها على الأريكة الأخرى، المواجهة لجهاز التلفاز. قالت له مع ابتسامة مشفقة: " حسنٌ أنك أفقتَ، وإلا لكنتَ فوّتَ موعدَ ذهابك إلى المقهى. هل ما زلتَ تفكّر بالسهر هناك؟ ". عوضاً عن إجابتها، وضعَ يده في جيب بنطاله: " ليسَ ثمة مطوى ولا حافظة نقود. كان حلماً شيطانياً، بالرغم من أنها ليلة مباركة "، فكّرَ بشعورٍ هوَ مزيج من الخيبة والإرتياح ❑❑

الهروب الى ومن خانقين

❑ هذه الشهادة مهمة وجديرة بالتوثيق، قبل ان اموت انا او محمد خضر بيجان بعد ان رحل عنا عبدالله الصباغ.

كان قد أصطحبنا عضو محلية ديالى محمد خضر بيجان من بيت المرحوم الاستاذ عبد الله الصباغ ، الى بيته في حي العمال خلف مقبرة خانقين انا وزوجتي الراحلة اتحاد، وكانت الحرب العراقية الايرانية في بداياتها مستعرة تماما ، فقد أزيل من الوجود قصر شرين المقابل لمدينة خانقين، وقد قصف الايرانيون خانقين بالطائرات والمدفعية، وكنت قد درّست الرفيق محمد خضر بيجان الرياضيات لامتحان البكلوريا، والشهادة انه من ابطال الانصار الاوائل، سنة 1974 والتي مختلف عليها، وكنت أذكره برفيقه الذي جرح في معركة وطلب من محمد أن يقضي عليه بدل الاعداء، وكان يتألم كثيرا لهذه التجربة التي فرضتها الظروف.

في تلك الايام قبل الانتقال الى خانقين كنت ابيت في بيت غاية في الكرم والامانة هو بيت أبي ناظم متي القريب من المحطة، فقد ذكر لي المثقف المهم الراحل ناظم متي انه استدعي عدة مرات في مديرية الامن هارون في ديالى وطلب منه هارون موقف الحزب من اثيوبيا وارتريا وشرح ناظم موقف الحزب من هذه المعضلة، واعطاه مدير الامن 25 دينار وهو اعلى عملة وقتها، وذكر لي وانا احمل هذه الامانة انه في يوم ما جاء مدير الامن في سيارة كبيرة وفيها محمد خضر بيجان والراحلين عبدالله الصباغ ونجاح حمدوش وذهبوا الى الصدور، يجب أن أذكر للامانة بعد 2003 حينما رجعت الى العراق تحاشاني المرحوم الاستاذ عبدالله الصباغ، رغم احترامي الكبير له.

وكنت قد سمعت من اخيه عباس ايام بقائي في بيت الاستاذ عبد الله الصباغ انني لست مطلوبا للامن رغم هروبي الى الكويت دون جواز سفر عراقي ورجوعي . وهنا يجب ان أذكر حقيقة مهمة ، كان الاستاذ عبدالله يستقبل في بيته مساء ، اعضاء محلية ديالى في المساء، كلّ عن انفرد، في الصالة يأتي الراحل البطل علي هادي، وفي غرفة الخطار نجاح حمدوش، وفي غرفة اخرى محمد خضر بيجان.

كنت اراقب ذلك من الطابق العلوي. كان لمحمد خضر بيجان علاقات متعددة مع اعضاء حزب البعث، ويعتبرها جسور للحوار. أنا اتحدث عن محمد خضر بيجان وهو على قيد الحياة.

في بيت الراحل عبدالله الصباغ مكثت اسبوعين تقريبا، قرأت الاقدام العارية التي تدور عن ما فعله عبد الناصر بالشيوعيين المصريين، وخاصة في سجن الواحات وأبي زعبل من تعذيب وقتله لشهدي عطية الشافعي ورفاقه. بعد ذهابي الى خانقين في بيت محمد خضر بيجان.

كانت خانقين قد قصفت بشكل عنيف، لان الجيش العراقي سحق قصر شيرين فأستحالت الى ارض محروقة فتبدد حلمي في الهروب من العراق الى ايران.

عندما دخلت خانقين كانت صامتة تماما ،الكهرباء تنقطع اغلب الوقت. وكان البشر الباقون قابعين في بيوتهم، أخذني محمد خضر بيجان الشجاع الى بيته في حي العمال او العامل خلف المقبرة وكان على خلاف مع زوجته السابقة، وكان بيته خاليا يقع ركنا، وفي مقابل بيته كانت مدرسة ابتدائية قصفت لتوها واثار الدمار واضحة للعيان.

المشكلة الوحيدة في بيت محمد ان التواليت خارج البيت. وفي مساء يوم ما ذهبت الى التواليت وبشكل تلقائي ضغطت على الزر فأضاء المصباح، وبسرعة فائقة أطفأت المصباح، لكن بعد فوات الاوان، فلاحظ اعضاء الجيش الشعبي الاضاءة وجاؤا الى محمد وقالو له من معك في البيت فإضطر محمدالقول بأن لديه ضيوف.

في هذه الاثناء تذكرت زوجتي ان خالها الحاكم فاروق حسن تحسين. كان بيت فاروق حسن تحسين يبعد عن بيت محمد ثلاثة دور، ويأتي بالضبط خلف البيت الثالث.

ذكر لي محمد خضر عن الشهيد مامستا نوري الشيوعي الذي قتله البعثيون، وبيته مقابل بيت الحاكم فاروق حسن تحسين، ولا اعتقد انه على قيد الحياة.

اقول ذكر لي محمد خضر ان فاروق حسن تحسين كان قيادي قديما في حزب البعث وخرج منهم وطلب من محمد ان يكون عضوا في الحزب الشيوعي العراقي ولكن اللجنة المركزية تريثت بذلك حفاظا على حياته ومنصبه المهم في القضاء.

في صباح اليوم التالي إستيقضنا وشاهدنا رجال الامن يحومون حول بيت محمد خضر بيجان، وكان محمد قد خرج فجرا دون ان نشعر به.

ماذا نفعل ورجال الامن يحومون حول بيت محمد، فكنت اراقبهم فقلت لزوجتي اتحاد لندع كل حاجياتنا التي اشتريناها من البصرة مع محمد ونذهب بطريقة طبيعية الى بيت الشهيد ماموستا نوري الذي يبعد ثلاثة دور كما اسلفت، خرجنا وقلوبنا في اقدامنا بمهل وذهبنا الى بيت الشهيد مامستا نوري الذين اغتالوه بدهسه بسيارة كما علمت.

أحمد السيد علي
العراق

طرقت زوجتي الدار وشرطة الامن تراقبنا من كثب. خرجت زوجة الشهيد وسألت ماذا تريدون فقالت زوجتي أنا ابنة اخت فاروق حسن تحسين وهذا زوجي نقل حديثا الى خانقين كمدرس للرياضيات في المدرسة القريبة في حي العامل او العمال لا اذكرها الان وهي تقع خلف مقبرة خانقين.

إستقبلونا بحفاوة لا مثيل لها واتمنى الان ان اذهب اليهم واعتذر منهم واشكرهم.

دخلنا انا واتحاد وهم لا يعلمون ان رجال الامن يرصدونا، وجلسنا بحدود نصف ساعة وامتدحوا الحاكم السابق فاروق حسن تحسين لنزاهته وجيرته الطيبة، بعدها دخلوا بيت خالتهم الملاصق لبيتهم خلف بيت الشهيد ماموستا نوري، كانت مصادفة غير محسوبة، ولكنها كانت عصا النجاة، اي هناك بين البيتين بصلة القرابة باب داخلي في الحديقة، فبعد الحديث طلبنا مشاهدة بيت خالها فاروق حسن تحسين، فدخلنا من باب الحديقة الخلفية الى بيت الخالة، ومكثنا قليلا ثم إستأذنا بالخروج في الشارع الخلفي الملاصق للمقبرة بعد توديع العائلتين دون ان يعرفوا ان رجال الامن يتجولون امام بيت الشهيد ماموستا نوري. سلكنا طريق المقبرة الى سيارات بغداد وهربنا.

بعد ذلك بثلاث اسابيع رجعنا لأخذ اغراضنا ذهبت اتحاد للسلام لبيت ماموستا نوري فقالوا لها في الباب ارجوك ادخلي انت اما زوجك فلا فقد بهذوانا بعد ذهابكم. ذهبنا الى بيت محمد خضر بيجان وكنا سابقا نأخذ المفتاح من تحت القرميد في الحديقة ولكن شاهدنا جميع زجاج الشبابيك مكسرة انتقاما لهروبنا، فأرادت اتحاد ان تدخل وتأخذ حاجياتها فلم انصحها بذلك خوفا من كمين ورجعنا متألمين لما جرى لعائلة الشهيد الرائع مامستا نوري ، ولم ألتقِ بمحمد خضربيجان حد الساعة هذه ❑❑

اثنا عشرية الهَوْل:

خواطر عن الكتابة والمجزرة وطيف الثورة الهائم

د. ياسين الحاج صالح
سورية

❑ ليس للكتابة بعد الثورة – المجزرة – الحرب أن تكون مثل الكتابة قبلها. فمن شأن ذلك أن يعني وضع الحدث المَهوْل بين قوسين، ضربٌ من فاصل مزعج يعود الكتّاب بعده إلى ما كانوا فيه أو عليه؛ أو أسوأ: وضع الكتابة ذاتها بين قوسين، خارج الحدث وخارج التاريخ. والأرجح أن هذا المسلك يصدر عن رفض أخذ علمٍ بذاتية الحدث وطاقته على المساءلة والتغيير.

لا يتحتّم أن يأخذ رفضُ أخذ العلم هذا شكلَ إنكار الواقع، بل ربما نفيَ معنى الحدث، إنكار معقوليته، وصمه بالزيف، رفض أنه كان ثورة في أي وقت. في أحسن الأحوال يجري نفي تاريخية الحدث ومفصليّته استناداً إلى كلفته العالية وانقلاب وُعوده الباكرة على نفسها، وفي أسوئها هو إيثارٌ للسكون أو انحيازٌ إلى ما هو ميت من عيش وفكر سابق للثورة والحرب والموت العميم.

كما لا يتحتّم أن تكون الكتابة بعد اثني عشرية الهول كتابةً عن الثورة – الحرب – المجزرة حصراً، لكن لا بدّ لها أن تكون كتابة مسكونة، آهلة بالناس وقصصهم وسيرهم ومِحنهم وموتهم، وليست محصورة في مجرّدات لا تاريخية، تحوم من علٍ فوق رؤوس الأحياء. هذا لأنه لم يسبق أن كان تاريخ سورية آهلاً بالناس أكثر مما كان في الأعوام الاثني عشر الأخيرة، ولم تكن سورية متعددة الأصوات يوماً مثلما ظهرت بعد ربيع 2011، بل إلى اليوم رغم كل شيء. ليس في الكتابة المسكونة ما يمنع من التجريد والتفكير المفهومي والنظرية، بل لعل فرص النظر المجرّد والمفهومية في التجدد أكبر وأوسع عبر الكتابة العامرة بالبشر منها عبر كتابة خالية منهم، تحاكي في بُنيتها السياسة الخالية من الناس التي تمرّد عليها السوريون. التجريد الذي يُبنى على وفرة الملموس هو معرفةٌ تعي نفسها، فتصير ذاتاً، غير التجريد المستند إلى تجريد آخر، يستمد شرعيته من أب أو أصل ما.

الكتابة بعد المجزرة مدعوّة لأن تنظر في كامل طيف التجارب التي خبرناها خلال نحو اثني عشر عاماً، وهي تجارب قصوى، مُعمِّمة، تراجيدية، ليس في تاريخنا المعاصر ما يشابهها أو يقاربها. هذا ما يجعل الكتابة ثورية. الكتابة الثورية ليست الكتابة المتحمِّسة للثورة (التي أكلت نفسها وفشلت، وخسرنا المعركة على كل حال)، بل التي تشتبك مع ما جرى بكل ما فيه، تنظر في التفاصيل، وتعمل على إنتاج المعاني والمفاهيم من طيف التجارب الواسع، وتناضل من أجل حرية المخيلة.

الثورة السورية نفسها لم تكن طرفاً محدداً في صراع اجتماعي سياسي، بل كانت طيفاً واسعاً، متعدداً وبالغ التنوع، شيئاً يشبه سورية ذاتها. ومعلوم أن من المحسوبين عليها من ارتكبوا جرائم شنيعة، وأن بيئاتها تحملت الغرم الأعظم خلال ما ينوف على اثنتي عشر سنة من الصراع، وأنه ينتمي إلى طيفها حصراً أنبل أبطال الشعب السوري ومن تتمثل فيهم سورية حرة وعادلة. ثم إن الثورة- الطيف انتهت إلى أن تكون طيفاً، شبحاً هائماً بلا جسد، بعد أن كانت أكثر تجسداً وأقل طيفية في بداياتها. الجسد مات وتحلل، وإن لم يدفن (هناك متعيّشون يحرسون الجثة المتحللة). أما الطيف فلا يتحلل ولا يزول، ينتاب الذاكرات والمخيّلات طوال الوقت، وهو لا يكف عن التجلي حتى في الكتابة التي تنكر الحدث.

وإنما لذلك لا يمكن للكتابة بعد الثورة- المجزرة أن تكون مثل الكتابة قبلها. هناك شبحٌ لا يغيب، يطلب العودة، يبحث عن جسد، ولا يرتضي بأقل من كتابة مسكونة، جسدٌ من كلمات، بعد أن تعذّر أن تكون السياسة مسكونة بأجساد من لحم ودم وأمل، تجتمع وتتكلّم وتعترض. الكتابة المسكونة تحوز هنا معنى يضاف إلى الكتابة العامرة بالناس، معنى الكتابة المهجوسة بأرواح هائمة، بأطياف شبحية تظهر وتختفي، وهذا مثلما نتكلم على بيت مسكون أو مغارة مسكونة. الكتابة المسكونة مجنونة بصورة ما، متمردة، غير عاقلة، منفلتة من الرقابة، خارجة على القانون.

مسالك

يبدو اليوم أننا على مفترق مسالك كتابية.

ثمة مسلك أول تقدّم التلميح إليه، يتفرع من داخل ما يُفترض أنه الطريق الثوري الحقيقي، أعني التثبّت على لحظة الثورة، وهي لحظة انقضت سورياً في وقت ما، إن لم يكن في عام 2013 وظهور داعش واكتمال انهيار الإطار الوطني للصراع، ففي لحظة إعادة احتلال حلب أواخر 2016، وقت عاود الطيران الروسي وقاسم سليماني وأتباعه السيطرة على حلب الشرقية وتهجير سكانها.

في مسار الصراع السوري خلال 12 عاماً ثمة أقنمة للثورة لم نعرف كيف نطوي صفحتها حتى بعد أن خسرنا وتشردنا. وبتصاعد انفصل الخطاب الثوري عما يجري في الواقع، مستمراً بهتاف يَلعن روح حافظ ويطلب رحيل بشار، حتى بعد أن رحل الهاتفون إلى بلدان قريبة وبعيدة. وراء ذلك دوافع نبيلة: الوفاء للشهداء والضحايا، أو إكراه نفسي: التجمد عند لحظة الرضة، الفقد أو التهجير أو التعذيب أو الاغتصاب...، مما هو مألوف في سيكولوجيا التروما. تحولت الثورة عند كثيرين منا من نِصاب العمل على تغيير الواقع (وقد فشل) إلى نصاب الهوية، تعريفٌ لأفراد ومجموعات في حالة إنكار لواقع لا يطاق. وكمقوّم للذات وتعريف لها يستمر خطاب «الثورة مستمرة» لأنه الآن مبدأ استمرار ومعنى للقائلين به، يخسرون معناهم من دونه.

لكن بذلك يصير الكاتب تنويعة ثورية لـ«المثقف الأهلي السوري» على ما وصفه حسام جزماتي، «عرضحالجي» الجماعة الأهلية، «السنية» غالباً في هذا المقام، يهتدي بِهداها ويغوي إن غوت. الثوريّة أو عبادة الثورة هي هنا عبادة للذات، لا شيء أكثر من نرجسية الجماعة الجريحة. ولا تعوض أي فاعلية سياسية عما يعرضه مؤقنمو الثورة السوريين من تحجر ثقافي يظهر في شكل «نصوص أصالوية تعتمد على المعاينة الشخصية الموضعية والانطباعية والتزيين اللغوي» بحسب جزماتي. وهو ما يغري بالقول إن الخصلة الأكثر ثورية للثائرين هي القدرة على إعلان نهاية ثورتهم، إعلان نهاية «حالة الطوارئ» النفسية والسياسية التي مثلتها الثورة، والتحول نحو سبل مغايرة من أجل الاستمرار في الكفاح.

ويقود مسلك ثان إلى كتابة من لا مكان أو لا موقع، هي بطبيعة الحال بلا بشر كذلك، بلا حساسية مميزة وذاكرة مختلفة ومخيلة مغايرة. وإغراء اللاموقعية أقوى في شرط «خارج المكان»، الذي هو «المنفى». ويغلب أن تأخذ شكل الاندراج في نقاشات البلدان التي ننتشر فيها اليوم، مع افتراض كونية ناجزة لما يُثار هنا من قضايا ولمن يثيرونها وكيفيات إثارتها. فهي بذلك عودة إلى أفكار كانت رائجة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، إن في صورة ماركسية أو تنويرية، حين كان يفترض أن «الكونية» توجد في شكل «علم» أو فكر تقدمي أو نظرية في التاريخ، أو «عقلانية»، لا في شكل تفاعلي متعدد الأصوات ومفتوح للغائبين أو مكتومي الصوت. ويتفرع من «المُصلَبة» (تقاطع أربع شوارع، تعبير شائع في حلب) الكتابية مسلك ثالث، ارتدادي يقود عوداً إلى

إيديولوجية غثة كانت مزدهرة قبل الثورة السورية، وتعود بأشكال موارية إلى الازدهار بعد الموجة الإسلامية اللاحقة للثورات. أعني الثقافوية التي كانت تشخّص مشكلتنا في رأس معطوب، وليس في «الكرسي» (أدونيس) أو «صندوق رأس» (جورج طرابيشي) مضروب، بسبب محتواه الديني، فلا تحل المشكل بـ«صندوق الاقتراع». في المثالين يغيب النظر في الجسم وبنيته ومعيشته وعلاقاته وتجاربه، فتحكم الثقافوية على نفسها بأن تكون مذهباً اختزالياً مثلما كانت الاقتصادوية حتى سبعينيات القرن العشرين وبعده، ولكن مع وظيفة تبريرية سياسياً، ودون أي حس جدلي معرفياً. الكاتبان لا يحيلان إلى أحد ولا يقتبسان من أحد، ولا يقدمان أمثلة ويناقشانها.

وللاموقعية نسخة إسلامية، تصادر على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فلا يعنيها أي زمان أو مكان، فلا تعيش في زماننا هذا في أي مكان محدد بغير عنف بلا حدود. تبدو الإسلامية المعاصرة لا أرضية، «منفية» ولا موقعية في كل مكان، ضرب من رومنسية جهادية مترحّلة وجوّابة آفاق على نحو أسس لظاهرة المجاهدين الجوالين الذي لا عمل لهم غير الجهاد، وقد كانوا كارثة نكراء حيثما حلوا. وبالمثل للثقافوية نسخة إسلامية، شعارها الصريح أو الضمني هو «الإسلام هو الحل»، وتأويله أن تروّس الإسلاميين هو الحل، فلا يهم بعد ذلك حال الجسم الاجتماعي الذي يراد تروّسه، اللهم إلا أن يكون مطيعاً مطواعاً. وفيّة للاتاريخيتها المتأصلة، تعتقد الثقافوية الإسلامية أن ما بعد داعش (وقد كان هذا الوحش البهيم جزءاً من الحدث الكبير ومن أسئلته التي ستبقى مفتوحة لزمن طويل) يمكن أن يكون استمراراً بسيطاً لما قبله، وأنه يمكن المضي إلى ما لا نهاية في موئولوج مديح النفس النرجسي ومظلومية الشكوى من العالم.

الكتابة المسكونة والإنسانيات والديمقراطية

هناك مسلك رابع، بديل: الكتابة المسكونة ذاتها، المفتوحة على التجارب الحية، والمتمرّسة بالمناهج التي تطورت لتمثيل دخول الناس إلى التاريخ وسكناهم في سياسة بلدانهم. أعني مناهج الإنسانيات، من الفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية.

الإنسانيات هي الثقافة الديمقراطية، من حيث إن ميلادها وتطوّرها قرين السياسة المسكونة، العامرة بالبشر. وبقدر ما إن السياسة المسكونة هي الديمقراطية، فإن الكتابة المسكونة وجهٌ أساسيٌّ لثقافة الديمقراطية. الكتابة غير المسكونة لا يمكن أن تكون ديمقراطية بالمقابل. ورغم ما يبدو من إخراج الناس في سورية، وغيرها من البلدان العربية التي مرت بتجربة الثورات، من التاريخ الذي ناضلوا للدخول فيه، فإن هذا المسعى لا يمكن أن ينجح ويستقر.

ورغم كل شيء فهو لم ينجح في سورية التي تعرض مجتمعها لتحطيم مهول، لكن التي لم يعرف سكانها دخولاً في السياسة والتاريخ منذ نشوئها قبل قرن ونيف أكثر مما خلال اثني عشرية الهول، وإلى اليوم. وإنما لذلك يتعين تمثيل ذاك الدخول بالأدوات الأنسب التي تتكلم عليه في شروطهم الاجتماعية التاريخية والعالمية، بأجسادهم ونفوسهم، بكونهم حملة ذاكرات ومخيلات متشكلة تاريخياً ومتغيرة تاريخياً، بمواقعهم في إنتاج الحياة وإنتاج الخيرات وإنتاج السياسة وإنتاج المعنى، بمشاعرهم وانفعالاتهم، بِبُناهم الأنثروبولوجية وسبل تعاملهم مع المفاجئ وغير المسبوق. من شأن التقدم في ذلك أن يكون امتلاكاً رمزياً للبلد الذي فقدنا ملكيته إلى حين.

هذا بديل من تحت، مفتوح على الملاحظة والتجربة والبحث المنظم كثيراً أو قليلاً، فضلاً عن استنفار الذاكرة والمخيلة، وليس بديلاً من فوق في صورة إيديولوجية ناجزة أو أبوة أخرى. وهو بديل متواضع، يوظف التجريب والأخطاء والتعلم، لكنه مثمر على مدى أطول. وهو بعد ذلك يحول فكرة الثقافة الديمقراطية باتجاه اجتماعي تحرري لتكون وعياً بالصراع من أجل الحرية والحقوق والمواطنة من قبل البشر العيانيين، بعيداً عن اشتراط ثقافي، بل إيديولوجي، على الديمقراطية هو في الواقع اشتراطٌ على حريات عموم الناس وحقوقهم (عينة مثلى على ذلك، كتاب جورج طرابيشي «ثقافة الديمقراطية»، وهو مثال للكتابة غير المسكونة: لا يرد فيها مثالٌ واحدٌ يحيل إلى تجارب وخبرات مناضلين من أجل الديمقراطية في سورية أو غيرها).

والواقع أن هذا البرنامج ليس ثورياً إلا بالمقارنة مع خواء الثقافوية بصورتَيها، ومع اللاموقعية بصورتَيها كذلك، وكذلك مع الثورانية أو أقنمة الثورة.

في غير هذا الإطار، برنامج الكتابة المسكونة – الإنسانيات هذا، أو «الثقافة الديمقراطية»، هو بالكاد «برنامج ديمقراطي»، منفتح على تمثيل الناس المختلفين لأنفسهم، بمن فيهم قريبون من مسوغي الفاشيّتين: فاشية ربطة العنق وفاشية اللحية الكثة. نقد الثقافوية واللاموقعية والثورانية هو المدخل الأنسب للإنسانيات، وحدث الثورة- الحرب- المجزرة هو مرجعيتها الأغنى.

عَسر كتابي

ثمة مشكلة عملية يتعين الوقوف عندها عند الكلام عن الإنسانيات و«الثقافة الديمقراطية». كلاجئين خارج بلدنا، نحن نعيش في المؤقت، وفي الزمان أكثر من المكان وأوضاعه وعلاقاته. وهذا مدخلٌ إلى عسر كتابي، يبدو الكتّاب القدماء نسبياً، ومنهم كاتب هذه السطور، معرضين لمعاناته أكثر من غيرهم، أعني أن نتكلم على عالم لم يعد موجوداً، على سورية قديمة وسوريين قدامى دون شبه بسورية والسوريين اليوم. كانت تجاربنا المباشرة ترفد كتابتنا حين كنا في البلد، فتُبث فيها حساً بالواقع، وليس الحال كذلك اليوم. نتابع تفاصيل الشأن السوري بقدر المستطاع، إلا أن المتابعة لا تُغني عن المعايشة المباشرة. وفي هذا ما يؤرق من يتطلع إلى أن تتزامن تجاربه الحية وأدواته التحليلية في ما يكتب. لكن عدا أن الأمر يتعلق بعدة سوريات، منها سورية الخارجة، نحو 30 بالمئة من السوريين متناثرين في نحو 127 بلداً في العقد الأخير، وعدا أنه ليس ثمة موقع واحد يتيح إحاطة وافية مبدئياً بسورية التي هي اليوم عنوان لشتات، فإن هذه صعوبة عملية، من صنف ما يواجه المشتغلين بالإنسانيات من ملاءمة ما يقدمون من تحليلات ونظريات لإطار الإحالة الواقعي الخاص بهم، وليست مسلكاً كتابياً عقيماً أو ارتدادياً مثل الثقافوية (وهي من النقائض التامة للثقافة الديمقراطية) واللاموقعية والثورانية أو عبادة الثورة. لسنا أول لاجئين خارج بلدهم يعملون في حقول الفكر والفن والثقافة، يستمرون في الصراع التحرري بطرق أخرى، مع كل ما قد يَسِم ذلك من أوجه قصور ونقص.

الطيف وطائر الصدى

التضحية الهائلة خلال السنوات المُنقضية مؤهلة لأن تؤسس لتحول فكري وثقافي، يأخذ علماً بها ويتلبّث عندها ويفكر فيها كمنعطف لشيء مختلف، شيء لا يقع بالقطع في الماضي، وإن كنا لا نستطيع أن نَعرِف اليوم خط السير نحو مستقبل مختلف. نَعرِف أن لدينا نقطة انطلاق مرجعية رئيسية، مركز نتوجه منه ولا نبقى حتماً فيه: اثنا عشرية الهول، الثورة – المجزرة – الحرب.

ولا يبدو على كل حال أن هناك جدال في أساسية هذا المنطلق. التقابل الكتابي الرئيس، اليوم، لا يقوم بين من ينطلقون من هذا الأساس وبين من لا يرونه غير فاصل مزعج أو غير معقول، فالجميع ينطلقون منه بصور مختلفة.

التقابل الكتابي يقوم بالأحرى بين من لا يكفّون عن إدانته وتحقيره ونفي المعنى عنه مثل أدونيس (وهو مستمر في اجترار تفكير قروسطي يشتق التاريخ المتحول من الماهيات الثابتة، وينتحل جذرية شكلية مثابرة على لوم الضحايا وإعفاء القتلة)، وبين من لا يكفّون عن الإحالة إلى هذا الحدث والنظر في ثناياه وطياته، ومساءلة أنفسهم ومجتمعهم وزمنهم وعالمهم بينما يفعلون ذلك. في المسلك الأخير من الطاقة على تجاوز أقنمة الثورة أكثر بكثير مما في الأول الذي يجعل من الحدث أقنوماً مضاداً، كُفراً آخر، فينكرون عليه المعنى كلياً مثلما ينكر الجهاديون المعنى على العالم (وعلى الثورة كذلك، بالمناسبة). والقصد في المحصلة أن تماثل الكتابة بعد المجزرة بالكتابة قبلها ممتنع أو غير ممكن قبل أن يكون غير مرغوب.

وعلى أرضية امتناع التماثل، تريد هذه الفقرة الختامية أن تُقرّب بين الشبح- طيف الثورة الهائم الذي يسكن الذاكرات والمخيلات وبين صيغة مُحوَّرة لأسطورة طائر الصدى العربية القديمة. تقول الأسطورة إنه يخرج من جسد القتيل طائر اسمه الصدى، لا يكف عن الصراخ طالباً الثأر، ولا يتوقف صراخه حتى يشرب من دم القاتل. وهناك من يقول إن هذه الطائر هو اليوم، وهو ما يعطي وجاهة، إن صح، لرمزية الشؤم والخراب التي يحملها هذا الطائر في ثقافتنا.

على أنه يمكن تأويل الأسطورة باتجاه أن يكون الصدى سعياً وراء صوت، وروحاً تبحث عن جسد. يدعو الطائر الذي لا يكف عن مراودة ذكريات الأحياء ومخيّلاتهم لأن نكون صوته، لأن نترجم صراخه وننقله إلى كلمات مكتوبة. وما يشجع على تحوير القصة بهذه الصورة الحرة هو أنه ليس ثمة ثأر ممكن لمن قُتلوا، وللثورة المقتولة. أقله لأن القتلة ليسوا طرفاً واحداً. لقد توزع دم الثائرين السوريين والثورة السورية بين القبائل (والأديان والدول). وفي هذا ما يجعل الثأر ممتنعاً، لكنه لا يلغي حلم الثورة والتغيير الجذري.

المسكونون بالصدى، بالطيف الهائم، يترجمونه كتابة إلى معان تحيا. وهذا إلى حين تترجم المعاني إلى واقع مغاير، ويعثر الطيف الهائم على جسد حي فتيّ من جديد، إلى حين ثورة جديدة. ويبقى لغير المسكونين أن يبقوا على السكون على ما كان وما مات.❑❑

صورة الجواهري

الشاعر والشعر

د. عبد الحسين شعبان
العراق

❑ كيف يمكنني أن أختزل شاعرًا كبيرًا بقامة الجواهري وحجم عطائه الإبداعي وتنوّع تجربته الغنية، ناهيك عن علاقتي الشخصية به والتي تمتدّ إلى نحو ثلاثة عقود من الزمن في مقالة أو بحث أو دراسة أو شهادة أو حتى كتاب، فقد بات البحث في شعر الجواهري وأدبه، ناهيك عن شخصيته وسيكولوجيته الخاصة من الأمور المعقّدة، فقد مثّلت مزيجًا من متناقضات عديدة لا تجتمع إلّا في شعراء نادرين أو فلاسفة كبار، لما تحمل من جوار الأضداد، فبقدر ما تتضمّن من تلقائية واعتيادية، ففيها فوارق واستثناءات، سواءً في الموقف والرؤية والسلوك، أم في التجربة والامتلاء والدلالة في المتخيّل والواقعي وما بينهما.

حيرة الشاعر

فالشاعر "العبّاسي" الذي عاش على امتداد القرن العشرين طولًا وعرضًا، يحمل في جنباته بيانًا وعرفانًا وبرهانًا، كلّ ذلك في محاولة تتطلّع إلى التجديد والحداثة لغةً وشكلًا حتى وإن كانت خيوط المحافظة تشدّها إلى التراث. تلك هي حيرة الشاعر التي عبّر عنها منذ وقت مبكّر، حيث تجاذبه قطبان هما الرغبة في التمرّد على الواقع من جهة والتعايش معه من جهة أخرى، وهكذا ظلّ معلّقًا بين الواقع والحلم وبين الحقيقة والطموح، وهو ما يأتي عليه في قصيدة كتبها في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين والموسومة بـ "المحرقة" والتي يقول فيها:

وما أنت بالمعطي التمرّد حقّه
إذا كنت تخشى أن تجوع وأن تعرى

أو كما يقول في قصيدته الدالية التي مطلعها "ازحْ عن صدركَ الزبدا ... ودعه يبثّ ما وجدا" التي ألقى بعض أبياتها بمدينة النجف الأشرف العام 1975 في حفل مهيب اقامته له الرابطة الأدبية لتكريمـــه بمناسبة منحه جائزة (لوتس) من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا، والتي يقول فيها:

عجيب أمرك الرجراج
لا جنفًا ولا صددا
تضيق بعيشة رغدٍ
وتهوى العيشة الرغدا
وترفِضُ مِنةً رَفَها
وتُبغِض بُلغةً صردا
وتخشى الزُّهدَ تَعْشَقُهُ
وتعشَقُ كلَّ من زهِدا
ولا تقوى مصامَدةً
وتعبُد كلَّ من صَمَدا

وظلّت صورة التحدّي والتناقض مهيمنة على الجواهري طيلة حياته التي تمتدّ طوال القرن العشرين، فقد ولد في العام 1900 أي قبل ولادة الدولة العراقية بما يزيد عن عقدين من الزمن، حيث تأسست المملكة العراقية في 23 آب / أغسطس 1921، وذلك بتتويج الملك فيصل الأول ملكًا على العراق، وتوفي الجواهري بدمشق في 27 تموز / يوليو 1997.

وهكذا يمكن اعتبار القرن العشرين هو قرن الجواهري بامتياز. ويمكن التعرّف على أوضاع العراق من خلال قصائده التي أرّخت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، علمًا بأن التاريخ الحقيقي لا يكتبه المؤرخون، بل يكتبه الفنانون حسب الروائي الروسي مكسيم غوركي، لما فيه من تعبير صادق عن واقع الحال وانعكاس له.

لعلّ صورة الجواهري التي ظلّت سائدة في الأذهان هي صورة المثقّف المنشق، خصوصًا في سنوات الأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، وهو ما حاولت التوقّف عنده في كتابي "الجواهري - جدل الشعر والحياة" في الفصل الخاص الموسوم "شاعر ودولة"، فالجواهري شخصيةٌ هوميروسيةٌ لقرن عراقي كامل بتركيبته ذات الجذور الفكرية والثقافية والأدبية، وسيرة حياته الغنيّة وتجربته المركّبة وشخصيّته العصيّة على الطاعة بقدر ما هي مطواعة.

جدل الشعر والحياة

حين صدر كتابي نهاية العام 1996، كان الجواهري ما يزال على قيد الحياة. وكان من بين آخر الكتب التي صدرت عنه والتي "اطّلع" عليها قبل وفاته. وفي وقتها كانت البلاد تئنّ تحت وطأة الحصار الدولي، الأمر الذي جعل الثقافة مهمّشة وثانوية أمام عبء البحث عن لقمة العيش، بعد أن كان الكتاب زادًا شهيًّا على مائدة المثقفين العراقيين، ويكاد يكون ضرورة يومية لحياتهم، وبسبب تدهور الأوضاع فقد أصبح اقتناء الكتاب ترفًا، وإن ظلّ العراقيون يطمحون للحصول عليه.

والمسألة تتعلّق بفعلين متناقضين، أحدهما - حالة الإقصاء الثقافي للرأي الآخر، التي كانت تمارسها المؤسسات الرسمية بفعل أُحاديّة التوجّه السياسي والأيديولوجي، وثانيهما - انغلاق البلاد بحكم نظام العقوبات الدولي، فحتى أقلام الرصاص كانت ممنوعة بحجة استخدامها في الصناعات العسكرية.

لذلك كان كتاب "الجواهري - جدل الشعر والحياة" يدخل المكتبات العراقية متسلّلًا وحذرًا، حيث ساد ما عُرف في وقتها بـ "ثقافة الاستنساخ"، أي إعادة تصوير الكتب من نُسخها الأصلية، لاسيّما الممنوعة وبيعها بما يتلاءم مع الظروف المعيشية المتردّية، وعلى نحو أشبه بالمنشور السرّي.

وعرفت ذلك من عدد من الأدباء والمثقفين الذين اطّلعوا على نسخة كتابي عن الجواهري مستنسخة ورأيتها بأم عيني بعد أول زيارة لي إلى بغداد، التي اضطررت إلى مفارقتها والبعد عنها كراهةً لنحو 23 عامًا، وقد اقتنيت نسخة مستنسخة من كتابي لاحتفظ بها للذكرى.

ولعلّ إصدار الكتاب بطبعة ثانية (دار الآداب - بيروت) وطبعة ثالثة شعبية (دار الشؤون الثقافية - بغداد) هي تأكيد على انتماء الكتاب للمكان بهدف إحياء الذاكرة والبحث في التفاصيل الصغيرة التي تشكّل عوالم يستعيدها، بل وينسجها المنفيون على حد تعبير إدوارد سعيد في كتابه "خارج المكان" الذي هو بمثابة سيرة ذاتية صدرت طبعته الأولى باللغة الإنكليزية العام 1999، وقد أهديت طبعة كتابي الثانية إلى المتنبي "شاعرًا وشارعًا".

ثلاث صور متداخلة

ثلاث صور تتداخل عندي حين أستعيد تجربتي مع الجواهري؛ أوّلها الصورة المتخيّلة، وثانيها صورة الاقتراب من الواقع، وثالثها الصورة الصداقية، ومع كلّ هذه الصور ثمة إعجاب متميّز ورابط مشترك يجمع هذه الصور حتى لتبدو صورة واحدة وإن كانت متعدّدة.

كان اسم الجواهري منذ طفولتي يملأ الأجواء لدرجة أنه كان يسكن مخيلتي وأنا ذاهب إلى مدرستي "السلام" الابتدائية في محلة العمارة بالنجف الأشرف، ماراً في الذهاب والإياب أحياناً أمام جامع الجواهري الشهير، الذي مضى على إنشائه أكثر من مئتي عام، حيث كان راعي الأسرة الجواهرية وباني مجدها الأول الشيخ محمد حسن، صاحب كتاب "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام" قد ذاع صيته العلمي وشاع اسمه في ذلك الزمان. وغدا كتابه مرجعاً رئيسياً للمنهج الدراسي، في جامعة النجف الفقهية، التي شُيّد صرحها منذ نحو ألف عام، وقد توفي جد الشاعر عام 1850، وظل قبره مميّزاً في النجف بقبته الزرقاء كعلامة بارزة في المحلة. وتضم القباب الزرق في النجف مقابر العوائـل الدينية الثلاث الشهيرة، وهم السادة آل بحر العلـوم وآل الجواهري ومسجدهما،

وجامع آل كاشف الغطاء.

الجواهري في بيتنا

كانت قصائد الجواهري ودواوينه، تزيّن مكتبة العائلة، حيث كان أعمامي وأخوالي، من مريديه والمتغنّين بشعره، وتحتوي مكتباتهم الكثير من القصاصات والصحف التي تتابع أخباره ونشاطاته الإبداعية مثلما كانت دواوينه تتصدرها، وكانوا مع مجموعة من المثقفين والأدباء، لا ينفكّون يتجادلون بما نظمه الجواهري وما كتبه.

هكذا نشأ الجواهري معنا في المنزل إذا جاز التعبير، أو بالأحرى نشأنا ونحن نتطلّع إليه. فمدرسة الجواهري للعلوم الدينية والفقهية، كانت قريبة من دارنا في "عكّد السلام" وآل الجواهري، يتوزعون بالقرب من بيوتنا المتراصة والمتكاتفة والملتفة حول صحن الإمام علي ومرقده الذي تعلوه القبّة الذهبية المتوهجة، والباعثة على الجلال والهيبة.

في تلك البيئة النجفية ولأسرة عربية تهتم كباقي الأسر الكبيرة في النجف بالشعر والأدب والمجالس الحسينية، إضافة إلى مكانتها الدينية، ولدتُ وترعرعتُ لتغدو تلك الروافد الروحية إحدى أهم ركائز حياتي المستقبلية.

وكان الشعر بخاصة والأدب بعامة، يشكّلان الأساس، الذي لا غنى عنه في المجالس والمناسبات الأدبية والدينية والاجتماعية، التي هي أقرب إلى الأندية الثقافية والفكرية، تطورت على مر العصور. فقول الشعر في النجف، وكما تعارف عليه الناس، طبيعي بمعنى آخر، أنه غير مصطنع أو يهدف إلى الكسب، أي إنه وجداني (ضميري) نابع من الشعور وليس أمراً تعليمياً.

مطارحات جواهرية

في مطارحاتي مع الجواهري سألته عن روافده الثقافية، فقال أن الظاهرتين الدينية والأدبية تلتقيان وتتعانقان على نحو كبير عنده بحيث يكوّنان مجرىً واحداً، فدينيًا بحكم فصاحة القرآن الكريم وبلاغته، أما أدبياً فمن منطلق الكتب الأدبية الأولى التي التهمتها مثل نهج البلاغة وأمالي القالي والمرتضى وكتاب الأغاني للأصفهاني وما ترك الجاحظ من روائع وما خلف الشعراء من تحف ونوادر، ثم كُتب النحو والبيان وبما فيها من تقويم الكلمة والبحث عن أسرار بلاغتها، ناهيك عن الدراسة الأولى في الحوزة الدينية.

ويضيف الجواهري إلى ذلك المجالس الأدبية والثقافية في ليالي الجمعة أو أيام الأربعاء (أماسي الأربعاء) التي حظيت بشهرة كبيرة، حيث تشهد مباريات شائقة ومسابقات حماسية، وهو ما يورده الشيخ جعفر باقر محبوبة في كتابه "ماضي النجف وحاضرها"، حيث كان الشعر متعة تلك المجالس الأثيرة، تجري فيه المطارحات الشعرية وفي المقدمة منها مسابقات "التقفية" الصعبة، حيث يقرأ المتسامرون هذا البيت وذاك ويتركون للآخرين الرد عليهم بأبيات تبدأ بحرف القافية ويواصلون هم أيضاً استنباط القافية.

وقد وصف الأديب اللبناني أمين الريحاني عند زيارته النجف عام 1922 بأنها "أعظم مدينة في العالم" لا في زخارفها أو جمال قصورها، بل في رجالها، حيث التقى عدد من أدبائها ومثقفيها وعلمائها، وحضر مجالسهم، وكان الجواهري قد كتب قصيدته النونية التي حيّا فيها الضيف، وجاء في مطلعها:

أرض العراق سعت لها لبنان
فتصافح الإنجيل والقرآن

فترة وإرهاص

دخل الجواهري ذاكرتي الطفلية الأولى مصحوباً بالتقدير حدَّ التقديس، والافتتان حدَّ الوَله، وبقصائد تحدٍّ، زادت جذوة الفتوة اشتعالاً. وكان هذا يكبر معي بمرور الأيام، خصوصاً التأثّر بقدرته العالية في التعبير عن أحاسيس وإرهاصات، كان هو وحده خير من يستطيع ويُحسن التعبير عنها، حتى ليقودنا إلى طريق مليئة بالمفاجآت والأحلام، مفضية إلى عوالم أخرى موشاة بالذهب تارة، وبالألغام تارة أخرى، بروعة وإبداع بالغين، وأخيراً تصويره لعنصر التحدّي والإقدام الذي امتاز به على نحو لا يضاهيه فيه أحد، وقصيدته العمودية التجديدية، ذات البناء اللغوي الخاص والإيقاع الموسيقي المتميز والمعاني الإنسانية التي تنضح بها، وكأنها تريد أن تحلّق بك في أجواء علوية سامية، في حين تتجذر في الأرض وتمد عروقها عميقاً في التربة العراقية، شامخة مثل نخيل العراق، مشرئبّة نحو أفق واسع مديد، يتجاوز فضاء العراق نحو أمة العرب جميعاً، حاملة معها صدق المشاعر الإنسانية الشفيفة.

لم تكتمل صورة الجواهري في مخيلتي الصغيرة، لكنها أخذت تحفر مكانها في الذاكرة لتستقرَّ تدريجياً، متنقلة من المخيلة إلى الواقع.

كانت أجنحة الروح تخفق معه حين ينشد قصيدة التحدي ذات الألق الخاص والتأثير المتميز المرصّع بصور لاهبة شديدة الإيحاء كثيرة التموجات خصبة الأحاسيس مشحونة بمعان الحياة المملوءة بالتقلب والتعرج والتناقض، فهو كالبحر لا يستقيم على مدّ دون جزر أو على جزر دون مدّ... إنه هما معاً.

الذاكرة الأولى بدأت تُختزن بقصائد وأبيات لها دلالات ومعان مرتبطة مع تلك الأيام، وبأسماء وبطولات وصور وتشكيلات كانت تؤلف المشهد الأكثر حضوراً في الصراع. وينبع بعضها من إشكاليات الجواهري ذاته، إذْ باستطاعته تحويل أيّة مناسبة إلى فرصة لتقريع خصومه، بل جرهم على المكشوف إلى حلبة الصراع ليعلن تحدّيه المباشر.
إن هذه القدرة العجيبة على التحدي، كانت السمة الأكثر تميّزاً في شخصية الجواهري وشعره، وكانت الجانب الأكثر تأثيراً في الشباب التوّاق إلى التغيير والتجديد. وتكاد قصيدة مثل "هاشم الوتري" تعبّر عن مرحلة كاملة، حيث يقول في مطلعها:

إيه "عميد الدار" شكوى صاحبٍ
طفحتْ لواعجهُ فناجى صاحبا

ويهاجم الجواهري ويتحدّى:

أنا حتفهم ألجُ البيوتَ عليهمُ
خسئوا: فلم تزل الرجولةُ حُرةً
أعرفتَ مملكة يباحُ "شهيدُها"
مستأجَرين يخرّبون ديارهُمْ
أغري الوليدَ بشتمهم والحاجبا
تأبى لها غيرَ الأماثلِ خاطبا
للخائبينَ الخادمينَ أجانبا؟
ويكافؤون على الخراب رواتبا

إذا كانت الصورة الأولى التي بدأت تتشكل مع مرور الأيام، مأخوذة بطابع الإعجاب والتحدي، فإن الصورة أخذت تفرز ألوانها، مع بداية الوعي بالحياة وتمييزي للأشياء، وقد أصبحت قصائد الجواهري، علامات مضيئة في الطريق التي تلمستها لاحقاً.

محظورات أبي

أذكر أن ثلاثة محظورات عكّرت صفو العائلة، وكدّرت مزاجها، فيوم اختفى عمّي شوقي (قبل اعتقاله) في أعقاب انتفاضة عام 1956، إبان العدوان الثلاثي الأنكلو-فرنسي "الإسرائيلي" على الشقيقة مصر وانتصاراً لها وتضامناً معها، احتار والدي الحاج عزيز شعبان، بتلك المحظورات، لأن كلاً منها كانت مصدر تهمة حسب اعتقاده، فما بالك إذا وُجدت مجتمعة.

المحظورات الثلاثة هي النظارة السوداء التي اكتشفها والدي مخبّأة في غرفة عمي شوقي مع حاجياته وأوراقه الخاصة. وكانت هذه دليلاً مقنعاً على المشاركة في التظاهرات. والثانية كانت الكوفية البيضاء (الغُترة في العامية العراقية) التي كان يلبسها الشيوعيون مع النظارة السوداء، لإخفاء معالمهم عن شرطة التحقيقات الجنائية، التي كانت تترصد المتظاهرين لتشخيصهم من قبل "الشرطة السرية" كما كانت تُدعى. وكانت النظارة السوداء مع الكوفية البيضاء دليلاً لا يخطئ خصوصاً إذا تم كبسهما في دور "المشبوهين". أما الثالثة فكانت "القصيدة الحمراء" وأعني بها قصيدة "عالم الغد" للجواهري، التي كان الشيوعيون يتغنون بها، وكانت هذه بمثابة بطاقة انتساب "أولية" للحزب الشيوعي، حيث وضع والدي يده على عشرات من النسخ في غرفة عمي البعيدة عن جناح الضيوف، الذي كنا نطلق عليه اسم "البرّاني" في اللهجة العراقية والنجفية بشكل خاص (يقابله استخدام الديوانية في جنوب العراق وبلدان الخليج العربي).

القصيدة الحمراء

أخذ والدي يُداري حيرته وقلقه بتقديم التبريرات التالية" فالنظارة السوداء قال إنه سيبرر استخدامها في فصل الصيف الحار، وفي فترة الظهيرة حيث الشمس المحرقة، أما الكوفية البيضاء بدلاً من الكشيدة (وهي عبارة عن فينة حمراء أي طربوش أحمر ملفوفة من وسطها حتى حافتها السفلى برباط أصفر اللون). التي ظل يعتمرها على طريقة الأجداد، فيما اقترحت والدتي استخدام الكوفية كصرّة لحفظ الملابس (بُقجة بالعامية العراقية) وتوضع في الخزانة مع الملابس والحاجيات الأخرى.

وازداد قلق والدي بخصوص "القصيدة الحمراء" فلم يشأ إتلاف النسخ التي عثر عليها وهي تعود لشيخ الشعراء على حد تعبيره، وقال: إنني سآخذها معي إلى المحل وأضعها بين الأقمشة بعيداً عن الأعين، حيث كان يعمل تاجراً لبيع الأقمشة، وكان هذا اقتراح عمي ضياء أيضاً، الذي كان شديد الإعجاب بالجواهري وعلى الرغم أنه لم يُعلّق على المقترحات الأخرى، كما لم يبدُ عليه القلق والحيرة التي انتابت الآخرين، لكنه قد يكون أكثرهم احتراساً وإن كان أكثر تماسكاً ورباطة جأش. ثم اقترح والدي إخفاء القصيدة الحمراء ومعها بضع قصائد أخرى في السرداب (القبو) في مكان موحش يصعب الوصول إليه.

زيارة رجال الأمن

وحسمَ الوالد الأمر بقراءة آية قرآنية وأخذ يردد لثلاث مرات "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون.. صدق الله العظيم" ثم قرأ "آية الكرسي" وقال: لنترك أمرنا إلى الله، وعلى طريقته "شيريد يصير خلّي يصير" أي "ليكن ما يكون" مضيفاً "الله يعمي أبصار الظالمين".

وبدّدت حيرة الوالد وتردده زيارة رجال الأمن "التحقيقات الجنائية" وكبسهم المنزل في اليوم التالي، وكانت العادة المتبعة "قانوناً" اصطحاب مختار المحلة معهم، لكن الحاج كاظم الشكري، مختار محلّة العمارة في النجف، رفض مرافقتهم لاعتبارات اجتماعية وصداقية، فأجبروا حلاق المحلة "رسول المزيّن" في سوق العمارة على مرافقتهم أثناء تفتيش المنزل، لكنهم مع وجود "المحرمات" الثلاثة: النظارة السوداء والكوفية البيضاء والقصيدة الحمراء، لم يعثروا على أي "دليل جرمي" أو "مستمسك ثبوتي".

ظل قلق القصيدة الحمراء ونظرة الإعجاب والتقدير للجواهري هاجساً يراودني بين الحين والآخر، وكلما اختلطت علي الأمور أو تشوّشت الرؤية أو بعدت المسافات، أو اتّسعت الهوّة بين الواقع والحلم أو استشرى التشاؤم والقنوط، أهرع إلى "ارتكابات" القصيدة، مستحضراً الصلة المعقدة وغير العقلانية بين المثقف ورجل الشرطة، والعلاقة بين الثقافة والقانون وبينها وبين السياسة، حتى أجد نفسي وجهاً لوجه أمام تلك الفترة، وبمواجهة الجواهري وهو ينشد قصيدة التحدي.

الحضور البهي

ما كنّا نقرأه أو نردده عن الجواهري، في المجالس الخاصة، همساً وتلميحاً، سمعته لأول مرة، يصدح من دار الإذاعة العراقية، بعد 14 تموز (يوليو) عام 1958، وإعلان الجمهورية العراقية، في قصيدته "النونية" التي يحيّي فيها الثورة، ويقول في مطلعها:

سدّدْ خطاي لكي أقول فأحسنا
فلقد أتيتَ بما يجلُّ عن الثنا

إلى أن يقول:

جيش العراق ولم أزل بك مؤمنا
عبد الكريم وفي العراق خصاصــة
وبأنك الأملُ المرجّى والمنى
ليـدٍ وقد كنت الكريم المُحسنــا

لكن الجواهري ظل يتعامل مع هذه القصيدة وكأنها لا تعود إليه، وحاول نسيانها أو تناسيها حتى عندما يُسأل عنها، وأتذكر عندما كنت أحاوره في النصف الأول من الثمانينيات قال لي مازحاً: "أن هذه القصيدة ليست لي"، وعند اختياري لها ضمن الذائقة الشعرية، كمختارات من شعر الجواهري في الكتاب الذي أصدرته في دمشق في العام 1986 بالتعاون معه "الجواهري في العيون من أشعاره"، اتصل بي مستدركاً من براغ وطلب مني رفع هذه القصيدة وعدم الإشارة إليها ضمن القصائد المختارة لفترة الخمسينيات، وفعلت ذلك على الرغم من أنني كنت قد أطلعته على المخطط وعلى الأبيات التي اخترتها من القصيدة، لكنه بنبرة جازمة كرّر طلبه برفع القصيدة، حتى وان تطلّب الأمر "إعادة الطبع"، وهو ما رويته بشيء من التفصيل في كتابي الموسوم "جواهر الجواهري" (قيد الطبع).

عشرة دراهم عجاف

شعرت مع بدايات الوعي والخطوات الأولى نحو الاهتمامات الأدبية والسياسية، بأن الثورة، في أهم ركن من أركانها الثقافية ردّت الاعتبار، أو لنقل بشكل أدق، كرّمت المبدعين والمثقفين، وفي الطليعة منهم الجواهري شاعر العرب الأكبر، كما صار يكنّى، وما كنت أدري أن هذه المقدمات التي حسبنا فيها أملاً لحياة جديدة، على الرغم ممّا رافقها من عنف غير مبرر وغير مشروع، ستنتهي إلى فواجع جديدة، ربما أشد فظاظة، بحيث يضطر المبدع الكبير والرمز العراقي والعربي، الجواهري، إلى الرحيل في العام 1961، وتلك إحدى المفارقات الخطيرة والمؤشرات الدالة على وصول الأوضاع إلى القاع تماماً. فقد كان هذه المرّة على يد الزعيم عبد الكريم قاسم الذي حاول إهانته وإذلاله، وهو الذي زار بيت الجواهري بعد الثورة وقال عنه "هذا المنزل هو الذي أنجب الثورة".

ثم جاء انقلاب 8 شباط / فبراير 1963 فأُدخل الشاعر وشعره في دائرة الممنوعات بقرار أصدره، كما أصدروا قرارًا بإسقاط الجنسية عن عدد من المثقفين والسياسيين خارج البلاد، وكان الجواهري في مقدمتهم، ترأس لجنة التضامن مع الشعب العراقي.

هكذا عاد الجواهري إلى دائرة المنع والعزل والتهميش، خلال السنوات السبع العجاف على حدّ تعبيره.

الجواهري في الخورنق

بعد أسابيع من ثورة 14 تموز (يوليو) 1958، جاء مدرّس مادة اللغة العربية السيد جواد كاظم الرفيعي في "متوسطة الخورنق" وهو يحمل صحيفة "البلاد" أو "صوت الأحرار" (لا أذكر بالضبط)، ليقرأ علينا قصيدة الجواهري "جيش العراق" ويطلب منّا أن نُعرب الأبيات، التي كان يقرأها على مهل وبدقة مصحوبة بنبرة محببة، ثم كلّفنا بحفظ ستة أبيات من القصيدة على الأقل، وبذلك دخل الجواهري حياتنا المدرسية وليس العائلية فحسب، مثلما شغل حياتنا السياسية والثقافية بكل معانيها، وبالمناسبة، فإن الأستاذ الرفيعي، اعتُقل معنا بعد أربع سنوات ونصف، في موقف "خان الهنود" الشهير (الذي كان المبنى الحكومي في النجف) قبل نقلنا إلى المعتقل (تحت الأرض)، وكنّا مع محبين آخرين لشعر الجواهري نتبادل الأحاديث ونجري مطاردات شعرية، حيث كان قسم غير قليل من المعتقلين ممن يحفظون شعر الجواهري، الذي كان يخرجنا من عتمة السجن ووحشته إلى آفاق شاسعة وعالم فسيح.

المدرسة التي كانت تستقبل قصائد الجواهري وتفتح نوافذها للجديد، أخذت تشجع المواهب الشابة الواعدة فتشكلت الفرق الموسيقية وأخرى للإنشاد والتمثيل، وكانت أيام الاثنين من كل أسبوع مناسبة يتبارى فيها "الواعدون الجدد" فتلقى الكلمات والخطب وتقرا الأشعار (في الساعة الأخيرة قبل نهاية الدوام).

وأتذكر من أوائل الذين تم تقديمهم وربما "اكتشافهم" إلى تلك اللقاءات الشاعر عبد الأمير الحُصيري (الذي كان طالباً معنا في المرحلة المتوسطة) وبدأ الحصيري خطواته الأولى بقراءة بعض قصائد الجواهري في الاجتماعات العامة "بلثغته المعروفة"، ثم بدأ ينظم بعض القصائد ونشرت له بعض الصحف مقطوعات منها.

وجها لوجه

كانت العلاقة الأولى، قد نشأت بين الجواهري وبيني من بعيد، حيث كنت أتابع كل شأن عام له، وكنّا نجتمع في بيوت الأقرباء والأصدقاء، للاستماع إلى قصائده أو تلقّف أخباره. وكانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بالجواهري وجهاً لوجه، هي في الاحتفال الذي انعقد في ساحة الكشافة ببغداد كانون الثاني (يناير) 1959، بمناسبة الذكرى الحادية عشرة لوثبة كانون 1948، حين اعتلى المنصة، لينشد في الجموع المحتشدة، بدعوة من جبهة الاتحاد الوطني، وكان حاضراً حينها بعض رجال الثورة، كالمهداوي وماجد محمد أمين ووصفي طاهر.

هكذا نشأت العلاقة بين الجواهري وبيني، بصمت ومتابعة وشغف. وكم كان الحزن عميقاً، عندما سمعنا لاحقًا سوء العلاقة بينه وبين عبد الكريم قاسم، والتي اضطرّ بسببها الهجرة إلى براغ بعد أن وصلته دعوة لتمثيل اتحاد الأدباء الذي كان يرأسه في مهرجان الأخطل الصغير (بشارة الخوري) التي تمّ تنظيمها في بيروت، وكتب قصيدته الشهيرة الموسومة:

لبنان ياخمري وطيبي
هلّا لممت حطام كوبي

ومن بيروت توجّه إلى براغ. وكم كنّا ننتظر أخباره، التي كانت تصل إلينا مع "بريد الغربة" ومن إذاعة "بيكي إيران"، وفيما بعد "إذاعة صوت الشعب العراقي"، وأتذكّر أننا كنّا نسجّل بعض قصائده على شريط كاسيت لنقوم بتوزيعها ومنها قصيدة "أمين لا تغضب" التي أهداها إلى الصحافي اليساري اللبناني أمين الأعور وذاع صيتها في العراق. كما كان يسرّب لنا بعض أخبار صديقه الأديب عبد الغني الخليلي.

في بغداد

حين عاد الجواهري إلى بغداد التقيت به في منزل خالي المحامي والشاعر جليل شعبان الذي وجّه دعوة له، وكان بصحبة صديق العائلة عبد الغني الخليلي، وكان لقاء حميمًا حضره نخبة من الأدباء. وفي العام 1969 التقيت به في براغ في مقهى سلوفانسكي دوم وهي المقهى الشهير التي كان يرتادها وكتب منها قصيدة إلى وزير الداخلية صالح مهدي عماش، وعُرفت باسم قصيدة "الميني جوب"، وكان ذلك خلال زيارتي إلى براغ في طريقي بالذهاب إلى والعودة من كراكوف (بولونيا) لحضور اجتماع تحضيري بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد لينين.

وبعد استقراري في براغ في أواخر العام 1970 كانت لقاءاتنا تتكرر وتزداد، سواء اللقاءات العامة وفي الفعاليات التي كنّا نقيمها وندعو الجواهري لإلقاء قصيدة فيها أو اللقاءات الخاصة مع مهدي الحافظ ونوري عبد الرزاق وموسى أسد الكريم (أبو عمران) وفيما بعد مع شمران الياسري "أبو كاطع" وعبد الستّار الدوري السفير العراقي حينها.

وكانت الحكومة العراقية قد خصّصت له راتبًا تقاعديًا بعد العام 1968 وحدوث انفراج سياسي وجرى تكريمه على أعلى المستويات. وعلى الرغم من تكرّر زيارته إلى بغداد 1968 - 1979، إلّا أن تلك الزيارات لم تنه منفاه، حيث استقرّ فيه بصورة نهائية حتى وفاته واختار منذ أواخر العام 1981 الشام بعد تهيئة مستلزمات ضيافته من الرئيس حافظ الأسد.

وخلال تلك الفترة توثّقت علاقتي بالجواهري، حيث أقمت في الشام أيضًا وهو ما جئت عليه في أكثر من مناسبة.

دمشق العيون

فكّرت أكثر من مرّة في تدوين بعض ما ورد في لقاءاتي مع الجواهري وعن لسانه، فضلًا عن قراءاتي النقديّة لشعره، وذلك منذ أيام براغ المحطّة الأولى التي شاطرته عشقها، حيث أخذت العلاقة تتّخذ طابع الصداقة، لاسيّما توفّر عوامل موضوعية مدعاة للثقة، منها العلاقة العائلية والمدينية، إضافة إلى كوني رئيسًا للطلبة. ولكن هذا المشروع تأجّل بسبب عودتي إلى العراق، وعاد مجدّدًا في دمشق، وابتدأت معه فعلاً، حين استقر فيها أوائل الثمانينيات، وكنت أشعر بمسؤولية كبيرة بقدر ما هي رغبة شخصية. واحتفظت بجزء من تلك الذكريات والقصاصات والخصوصيات، إلّا أن الوقت لم يسعفني في إنجازها، حيث ذهبت إلى كردستان في مهمة إعلامية وسياسية، مع الأنصار "البيشمركة"، بين عامي 1982 و1983، وعند عودتي وتماثلي للشفاء، إثر علاج تلقيته في دمشق وموسكو واستكملته في براغ وصوفيا، بدأت المشوار معه مرة أخرى، وسجلت له أشرطة صوتية (كاسيت) في أواسط العام 1985، وأحتفِظ بعشرة منها.

وخلال الحوار، عَنَّتْ لي فكرة عبَّر عنها الجواهري بحاجة الجيل الجديد من الشباب العربي والجامعي بخاصة، وكل متذوقي الأدب والشعر منهم بعامة إلى المجموعة الشعرية الكاملة.

فاقترحت عليه إصدار عيون القصائد، وهكذا وقع اختيارنا على الإسم "الجواهري في العيون من أشعاره"، وهو عنوان موسيقي بقدر ما يمتلك دقّة في التعبير. وأبديت استعدادي لإنجازها. وقد قسّمت مجموعة القصائد إلى سبعة عقود، واخترت أفضلها وأحسن ما فيها من أبيات، محافظاً على روح القصيدة ومناسبة نظمها وفقًا لذائقتي الشعرية. وعرضت عليه المخطّط الذي وضعته، فوافق عليه مع بعض التعديلات الطفيفة. وهكذا صدرت "العيون" وأصبحت مرجعًا للدارسين ولكلّ متذوّقي شعر الجواهري.

وطلبت من الجواهري الكبير كتابة مقدّمة لها تبيّن أسباب اختيار هذه العيون ودوافع نشرها. وخصص الجواهري صفحة للحديث عن الجهد الذي بُذِل في سبيل إنجازها قال فيها "... ويسرّني في الختام أن أخّص بالشكر الجزيل والامتنان العميق أخي وصديقي الأديب والمؤلف الدكتور عبد الحسين شعبان على أتعابه وفرط عنايته وجهوده الحميدة، سواء بما تقابل به معي في اختيار هذه "العيون" وفيما يختص بضم هذه اللقطة المختارة إلى جانب تلك أو في تصويرها، أو في الإشراف على طبعها وتصحيحها، وكما قيل:

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس"

وقد صدر الكتاب في دمشق عام 1986، عن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بـ (696) صفحة. ونظرًا لمرور ثلاثة عقود ونيّف من الزمن ونفاذ الطبعات العديدة، فقد عملت على إضافة شروح كثيرة لألفاظ قدّرنا أنها تصعب على القارئ العادي، فلغة الجواهري عبّاسية بامتياز. كما صحّحنا جميع الأخطاء الطباعية التي كانت في طبعتنا من "العيون" أو في الدواوين السابقة دون إشارة إلى ذلك. وحدّثنا سيرة الجواهري إلى تاريخ وفاته (1997) بعد أن توقفنا في الطبعة الأولى عند سنة 1986. وذيّلنا هذا الكتاب بفهرس للقوافي إضافة إلى فهرس عناوين القصائد ليسهل الرجوع إلى القصيدة المطلوبة. وأضفنا 9 قصائد كتبها الجواهري بعد صدور "العيون" (ما عدا قصيدة أمين لا تغضب فهي من نتاج الستينيات)، وقد وضعناها آخر الكتاب مع الإشارة إلى أنها ليست في طبعات الكتاب السابقة. كما ضبطنا أواخر الكلم وخرّجنا بحور جميع القصائد وأثبتنا قبل كلّ قصيدة عدد أبياتها من الأصل، واخترنا اسمًا يدّل عليها والموسوم "جواهر الجواهري".

جدير بالذكر أن الجواهري كان قد كتب لي قصيدة يقول فيها:
أخي العزيز عبد الحسين شعبان

أبا "ياسر" أنت نعمَ الصحيب
لقد كنت في محضر والمغيب
وفي ذكرياتي كنت الصميم
وقلّ الصحّابُ ونعمَ الخدين
ذاك الوفي وذاك الأمين
سمير المعنى وسلوى الحزين

وطيلة العقود الثلاثة من علاقتي مع الجواهري كنت أكتشف في كل لقاء معه شيئاً جديداً وسراً مغايراً. وفي كل مرة أعيد قراءة شعره، أكتشف أشياء كثيرة جديدة، حتى وإن كنت قد قرأت القصيدة من قبل مرات عدة، وهكذا كنت أطّلع باستمرار على معلومة ثرية لديه أو دلالة جديدة في المعاني والإيماءات البلاغية أضيفها إلى خزيني، الذي بدأ يكبر.

واليوم أشعر بمسؤولية أكبر من السابق بوضع حواراتي مع الجواهري وما دوّنته عنه وما بحثت فيه وما استقيته من مراجع معتمدة أمام القارئ، أملي أن تكون إضافةً جديرةً ومختلفة ومتميزة عما جاء في المقابلات واللقاءات الصحفية، التي سبق للجواهري أن أجراها خلال عمره المديد وحياته الأدبية الحافلة وما كُتب عنه. فقد حاولت أن أركز على بعض القضايا التي لم يتناولها الجواهري سابقاً أو لم يتوقف عندها طويلاً.

وحين نشرت حلقتين من حوارات مع الجواهري في صحيفة "الحياة" (مصدر سابق) هاتفني الصديق الشاعر الراحل بلند الحيدري، مبدياً إعجابه وتشجيعه، وهنا انتهزت الفرصة فطلبت منه أن يقرأ المخطوطة بعد اكتمالها ويقوم هو بتقديمها إلى القراء العرب، فرحّب بذلك بأدبه الجم وكياسته المعهودة وتواضعه المشهود قائلاً:
"هذا يشرفني" واتفقنا على التفاصيل، لكن المرض داهمه بعد أيام فدخل المستشفى لإجراء عملية قسطرة قلبية، صاحبتها مضاعفات سريعة، لم تمهله طويلاً، فرحل ركن هام من أركان التجديد الشعري في العراق والوطن العربي وخسرت الثقافة رائداً من روادها.

حضور التاريخ

من النجف إلى بغداد ومنها إلى براغ ولندن ودمشق وبيروت كان الجواهري حاضرًا معي، بل أنه حاضر في تاريخ العراق، إذْ لا يمكن أن تتناول تاريخ العراق السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الصحافي أو غيره، دون أن تأتي على ذكر الجواهري، فهو أوّل من تمرّد على المدرسة النجفية التقليديّة حين خلع العمامة، وأوّل من ندّد بموقف الرجعيين كما أسماهم حين عارضوا فتح مدرسة ابتدائية للبنات في النجف 1929، وأول من ندّد بالفاشية والنازية وحيّا في قصائد شهيرة سواستبول وستالينغراد، وأول من وقف بوجه المجالس النيابية المزيّفة وضدّ المشاريع الخارجية، وكان صوته صدّاحًا بعد ثورة 14 تموز / يوليو 1958، مع أن التشاؤم والإحباط بدأ يتسلل إليه، خصوصًا في غربته وبُعده عن الوطن.

في الختام أستطيع أن أقول أن الجواهري كان طفلًا صغيرًا، لم يكن يريد أن تفلت لحظة من بين أصابعه، كان حالمًا وظلّ حالمًا طوال حياته، حتى وإن كانت أحلامه تتبدّد أمام عينيه، لكنه ظلّ يركض وراءها، وكلّما كان يقترب منها كانت تفرّ من بين يديه. كان يطلب المستحيل أحيانًا، لكنه يرضى بالممكن أو بأقلّ منه.

لم يغادر حلمه حتى في أسوء الظروف، فالشعر سؤال فرادة وهو سؤال فلسفة، والفلسفة فكر، وهي قلق إنساني، وبالتالي فالشعر رؤية "وليست كلّ عين ترى" حسب جلال الدين الرومي. ❑❑

العنف الرمزي وإخفاء علاقات الهيمنة والاستغلال جزيرة كاراباثوس أنموذجا

بيرنارفينيي*

ترجمة نجاة تميم

العراق

❑ أود أن أبدأ باقتباس من كتاب بيير بورديو الموسوم "منطق الممارسة": "العنف الرمزي هو ذلك العنف الذي يفرض خضوعا، لا ينظر إليه كخضوع، وذلك لأنه يعتمد على ما تتوقعه الجماعة من خلال معتقدات مغروسة اجتماعيا. كما أن نظرية العنف الرمزي ترتكز على الإيمان أو على نحو أفضل، على نظرية إنتاج المُعتقد، وعلى عملية التنشئة الاجتماعية اللازمة لإنتاج عوامل تتمتع بأنماط الإدراك والتقدير التي ستمكن المهيمَن عليهم من إدراك الأوامر الزجرية المتداولة التي يجب أن يُطيعونها".

يبدو لي أن إحدى الطرق الجيدة لجعل مفهوم العنف الرمزي مفهوما، هوإعطاء، في الوقت نفسه، فكرة عن المدى المحتمل لمجاله التطبيقي، يمكن أن يكون من خلال تقديم سلسلة من أمثلة ملموسة، ومواقف بسيطة ومتنوعة بما فيه الكفاية حيث يمكن تطبيق العنف الرمزي فيها. سآخذ هذه الأمثلة من مجتمع عملت فيه لفترة طويلة كإثنولوجي وسأطبق ما تعلمته من بيير بورديو، خلال دراستي الجامعية في مدينة ليل. هذا سيجعل من الممكن إظهار تنوع الآليات التي يتم التعبير عنها، داخل نفس المجتمع، لممارسة هذا العنف الرمزي والحصول على خضوع، غير مُدرك على هذا النحو، للمهيمَن عليهم ولكن هذا سيوفر أيضا ميزة التأكيد على الطابع التعسفي للحدود الاثنولوجية| الاجتماعية التي تعد واحدة من أهم العقبات التي تعترض تطوير العلوم الاجتماعية من خلال الحد من تنافس الأفكار داخل المجال العلمي.

جزيرة كارباثوس أنموذجا

كان رجال ونساء جزيرة كارباثوس اليونانية، في بحر إيجة، قد نظموا توريث أملاكهم من جيل إلى جيل، حسب مبادئ، تبدو فريدة من نوعها في أوروبا. حتى خمسينيات القرن العشرين، اتسمت العلاقات العائلية بالهيمنة والاستغلال، مفضلين الأبناء البكر من الجنسين على إخوانهم وخصوصا على أخواتهم الأصغر سنا. فهذه العلاقات تجسد عنفا كبيرا، بحسب بورديو. إن نظام القرابة الذي ينظمهم يتميز بوجود أحقية الابن والابنة البكر في الميراث. على عكس ما كان موجودا في جزء كبير من أوروبا في ظل النظام القديم، كان في هذه الجزيرة وريثان لكل أسرة. يرث البكر من الذكور جميع ممتلكات والده (منزل، أرض، طاحونة، مصلى خاص، إلخ) وترث البكر من الإناث من جميع ممتلكات والدتها.

كان هذا النظام يسمح لخطين جنسانيين، الذكر والأنثى، منفصلين بوضوح، بالتكاثر من جيل إلى جيل اثناء إعادة إنتاج وضعهما الاجتماعي؛ حيث يتم نقل الميراث الجنساني (من الجنس نفسه) بطريقة متكاملة إلى الطفل من الجنس المقابل. أما الأبناء الآخرون،فيحرمون من الميراث. وتضطر أغلبية الإخوان الأصغر سنا إلى الهجرة. أما أغلبية الأخوات الأصغر سنا فيبقين عازبات مدى الحياة. يعملن كخادمات أو عاملات في الحقول بدون أجر للثنائي البكر (الأخ أو الأخت).

يمكننا وصف علاقات البكر (ذكرا أو أنثى) بالأصغر سنا بالأدوات المفاهيمية الماركسية: يستغل البكر من كلا الجنسين، وهم أصحاب وسائل الإنتاج (الأرض، إلخ) أخواتهم الأصغر سنا، ولأنهن مضطرات من أجل العيش، فإنهن يقدمن مقابل ذلك جهدهن في العمل (كأيدي عاملة).

كان هذا الاستغلال شرسا بشكل خاص مقارنة بالاستغلال الذي وصفه ماركس في المجتمعات الرأسمالية. ففي هذه المجتمعات كان الراتب الذي يتقاضاه البروليتاري مقابل قوة عمله يسمح له على الأقل بتأسيس أسرة وإعالتها.كان للبروليتاريا أسلوبها المستقل في التكاثر البيولوجي. أما في مجتمع كارباثوس، فهذه العلاقات الاستغلالية لم تسمح للفتيات الصغيرات ببناء أسرة. هنا كانت المجموعة المهيمِنة من الأبناء البكر الذين، من خلال استنساخ أنفسهم، وازدياد أعدادهم بيولوجيا، ساهموا، في الوقت نفسه، في إعادة إنتاج المهيمَن عليهن، اللواتي هم في حاجة لخدماتهن.

في كلا النوعين من المجتمع، يتم إعادة إنتاج هيمنة المسيطَر عليهم، قبل كل شيء في المجال الاقتصادي. ولكن إذا كانت التبعية القانونية الاقتصادية للفتيات الأصغر سنا كافية لإجبارهن على العمل من أجل إخوانهن وأخواتهن البكر (بنفس الطريقة التي حكمت بها التبعية القانونية الاقتصادية للبروليتاريين، المستبعدين من الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، لتوظيف قوتهم العاملة)، فهذا لا يفسر سبب موافقة الأخوات الصغيرات على البقاء في القرية في ظل ظروف استغلال قاسية جدا. والسؤال:" لماذا لم يحذون حذو إخوانهن الذين فروا من الهيمنة العائلية وهاجروا القرية؟

لفهم هذا اللغز، يجب أن نترك موقف العالم الذي يحلل الأشياء بشكل موضوعي وعن بعد، كما يسميها بورديو "موضوعية"، وعلينا أن نهتم بالأخوات الأصغر أنفسهن، ونعتبرهن أشخاصا، لديهن مشاعر وإرادة، ونتوجه إلى تجربتهن الحية. ونتساءل كيف ينظرن إلى أنفسهن وكيف يعشن أوضاعهن. فإذا بقين في القرية ووافقن على العمل في مثل هذه الظروف، يبدو أنهن لم يرين استغلالهن بهذه الطريقة (فهن، إذا ضحايا ما يسميه الماركسيون ظاهرة الوعي الزائف)، يعشن حياتهن ويعتقدن بأن مصيرهن أمر مسلم به.

العنف الرمزي وإخفاء علاقات الهيمنة والاستغلال

يمكننا الآن إعطاء محتوى دقيقا للمفهوم الذي انطلقنا منه. يشير العنف الرمزي إلى كل ما جعل في هذا المجتمعإخفاء علاقات الهيمنة والاستغلال ممكنا على هذا النحو؛ وبشكل أعم، كل ما جعل الفتيات الأصغر سنا (بصرف النظر عن التبعية القانونية والاقتصادية الصارمة) خاضعات، يعشن مصيرهن كأمر طبيعي، أي شرعي.

هناك، أولا، الوزن الهائل للتقاليد. فهذه الأخيرة هي مصدر قوي لإضفاء الشرعية على التعسف في جميع مجتمعات ما قبل الرأسمالية، (وما زالت قوية في مجتمعاتنا التقليدية وتتجلى في زواج أبناء العم مثلا). يكفي أن يكون هذا السلوك موجودا في الذاكرة الحية ليبدو شرعيا. فالفتيات الأصغر سنا يدركن بالكاد تعسف مصيرهن. لأنه، في جميع الأوقات، هو نفس السلوك المتداول والمتعارف عليه وبالتالي كان يبدو لهن كأنه مصير طبيعي. وبتعبير أدق، كن يجدن صعوبة في إدراك استغلالهن على هذا النحو، ولكي يتمكن من أن يقلن لأنفسهن "أنا مستغلَّة"، يجب عليهن أولا التفكير في مقارنة الأجر الذي يتلقيانه مع العمل المقدَّم. من الضروري أن يكن قادرات على الحساب بمنطق اقتصادي صارم. كان الأمر مستحيلا هنا، لأن الفتيات لم يتلقين أي أجر على عملهن. وغياب دفع الأجور مقابل أعمالهن منعهن من التفكير من منظور اقتصادي بحت، وبالتالي منعهن من إدراك استغلالهن.

لقد أدركت النّسَويات أن مؤسسة الأسرة تخفي كفاءة غامضة ورائعة؛ فالعمل الذي تنفذه هؤلاء الفتيات لا يُدرك أبدا وفقا لمنطق اقتصادي بحت. فهذه الخدمات التي هي اقتصادية بشكل موضوعي وتتم داخل هذه القرية (هنا عمل الفتيات)، تخضع تلقائيا لعملية تحويل حقيقية؛ فإنها تتحول إلى إشارات وإثباتات على الإخلاص أو المودة أو الحب. فإذا كانت مؤسسة الأسرة قد لعبت دورا أساسيا في هذا العنف الرمزي تجاه الفتيات الأصغر سنا، فإن عدم تقدير عملهن اقتصاديا هو إنكار اقتصادي بحد ذاته وهو الذيساهم في عدم وعيهن بالاستغلال الاقتصادي

الذي كن ضحاياه.

أما التأثير الأكثر تطرفا لاستغلالهن هو بقاؤهن عازبات. حُكم عليهن باستثمار كل المودة في خدمة الأخ أو الأخت البكر وأولادهم، لدرجة أنهن يهدين المال، في حالة حصلنا عليه من خلال عملهن عند أسر أخرى إلى أطفال إخوانهن البكر وذلك بكل عفوية وسرور. وهذا يعني مدى تهميشهن الاقتصادي وكذلك العاطفي.

وإذا كانت الأخوات الأصغر ينظرن إلى خضوعهن على أنه أمر بديهي وليس قيدا مفروضا، فذلك يرجع إلى أن نظام القرابة، الذي نظم علاقات القرابة العملية، قد نقش في ذهنهن وبعمق فكرة دونيتهن. كما أن القرية بكاملها تمارس هذا العنف الرمزي في الحياة اليومية. فالفتيات يلقين نفس المصير في كل العائلات، ويمكنهن التحقق من أن مصيرهن مصيرا طبيعيا، وأنه يتوافق مع ترتيب الأشياء في الواقع المعاش. يمكنهن أن يرون أن مصطلح "دولا" ويعني عبدة، كان يُستخدم وبسهولة للإشارة إلى الأخوات الأصغر سنا؛"i doula tis Ernia"" أي عبدة إرنيا.

من المفهوم، لاستئناف الاقتباس المقدم في البداية، أن الأخوات الأصغر سنا "مزودات بأنماط الإدراك والتقدير التي ستسمح لهن بإدراك الأوامر (تلك الخاصة بالأخت البكر على سبيل المثال) مدونة في موقف أو في خطاب وذلك لطاعتها".

هذه الأنماط من الإدراك والتقدير، التي تم اكتسابها تدريجيا خلال عملية التنشئة الاجتماعية متعددة الأوجه، هي التي تجعل الأخت الصغرى في كل لحظة وفي كل موقف تعرف ما يجب عليها فعله لأختها البكر، حتى قبل ان تتفوه هذه الأخيرة بذلك.

وكما يقول الكثيرون وبورديو ايضا، فإن جميع المجتمعات التي تمر بعلاقات الهيمنة تميل إلى إضفاء الشرعية عليها من خلال تطبيعها وتأسيسها في الطبيعة. وكان هذا هو الحال أيضا في كارباثوس. كان يُعتقد ان الأخوات والإخوان الأصغر سنا هم (apospori) ؛ منتج السائل المنوي الجنسي ذي النوعية الرديئة.

في حالة العنف الرمزي، بحسب بورديو، كانت المشكلة الاجتماعية (ولكن السياسية أيضا) التي يتعين حلها هي: لماذا يوجد تمرد قليل في عالم ما زال يتسم بالكثير من عدم المساواة والظلم، كما يتضح من علاقات الهيمنة و| أو الاستغلال بين الطبقات الاجتماعية، بين الرجال والنساء، بين الأبناء البكر والأبناء الأصغر منهم سنا (في المجتمعات ذات الحقوق المكتسبة للأبناء البكر)، بين سكان الحضر والفلاحين، بين الملك والشعب، إلخ.

الجواب الأول على هذا السؤال: يمكن لمن هم في موقع مهيمن استخدام القوة الجسدية البسيطة أو المسلحة لمنع أي تمرد. فإن الدولة في مجتمعاتنا (Weber) تحتكر الممارسة المشروعة للعنف الجسدي. نحن نعلم أنه ليس من غير المألوف أن تستخدمه لإخماد التمردات الاجتماعية وبالدم.❑❑

* أستاذ بجامعة ليون

المصدر

Bernard Vernier, «Violence Symbolique, Pierre Bourdieu», les champsdela critique, Colloque organisé par la BPI en actes, Bibliothèque Centre Pompidou, Paris, 2004. pp. 21-42

في ذكرى ميلاد عبد الله أوجلان

قصة حقيقية لعاشقين ساهم القائد في إنقاذهما

ضيا اسكندر
سورية

❑ بعد قصة حب طويلة عاشها أحد الرفاق مع رفيقته في الحزب الشيوعي السوري أواسط عام 1987، تعرّضا خلالها لشتى صنوف العذاب من ذويهما؛ لانتمائهما لمذهبين مختلفين في الدين الإسلامي نفسه.

قرّر العاشقان الزواج بمعزل عن رضا أهلهما، بعد يأسهما من الحصول على الموافقة، ضاربيْن عرض الحائط بكل العادات والتقاليد التي ترفض هذا النوع من الزواج، ووضعا حداً لتلك الضغوط وفرضا الأمر الواقع على الجميع.

وبحكم ظروفهما المادية الصعبة، فقد اضطرا للسكن بالإيجار وبأثاثٍ أقلّ ما يمكن القول عنه إنه في الحدود الدنيا للعيش، وشاءت الصدف أن تقع الشقة التي استأجراها إلى جوار شقة عائدة لمجموعة رفاق من حزب العمال الكردستاني في حي الرمل الشمالي باللاذقية.

وبعد مُضيّ عدة أشهر، نشأت علاقة تعارف بين الزوجين الجديدين وجيرانهما في الحزب المذكور، ما لبثت أن تحوّلت إلى صداقة.

في ذلك العام، شنّت السلطة الحاكمة في دمشق حملة اعتقالات واسعة، طالت المنتسبين إلى حزب العمل الشيوعي المحظور، الذي كان يُعرف بـ (رابطة العمل الشيوعي).

كانت حملة لا تفرّق بين الفصائل التي ينتمي إليها الشيوعيون، فقد شملت أعضاء من الحزبين الشيوعيين المنضمين إلى الجبهة الوطنية التقدمية، بالإضافة إلى تنظيمات ماركسية أخرى مثل الحزب الشيوعي السوري – المكتب السياسي وغيره.

شعر الزوجان أن حملة الاعتقالات قد تطالهما، علاوةً على استمرار الضغوط عليهما من قبل ذويهما وتعرّضهما للتهديد بالقتل، ففكّرا بالفرار والسفر خارج البلاد، وطرحوا الفكرة على جيرانهم في حزب العمال الكردستاني، وكان جوابهم؛ سنستشير بهذا الأمر القائد عبد الله أوجلان الذي كان يشرف في ذلك الوقت على تدريب المقاتلين في حزبه بأحد المعسكرات في منطقة البسيط شمال اللاذقية..

وبعد أيام، جاءهما الخبر السّار؛ بأن القائد أوجلان قد تعاطف معهما، وقال إثر سماعه لقصتهما:
«بلّغوهما تحياتي وتمنياتي لهما بحياة رغيدة، وقولوا لهما إن هذا الظلم الواقع على المرأة لن يستمر، وهذه التفرقة سواء بين الأديان أو بين المذاهب المختلفة في الدين الواحد، والتي يستثمرها المتربّصون الذين يستغلون الدين لمآربهم الدنيئة الخاصة، سوف تزول مع انتشار الوعي والفكر التحرري. (وختم بالقول) قدّموا لهما ما بوسعكم لتأمين سفرٍ لائق لهما إلى فرنسا».

وبالفعل، جُهّزت جوازات السفر لهما، وتأمين كافة المستلزمات المتعلقة بسفرهما، وصلا إلى باريس بعد رحلة مضنية، وكان في استقبالهما رفاق من حزب العمال أمّنوا لهما المسكن والعمل.

وما زال الزوجان يعيشان هناك منذ عام 1988 وحتى تاريخه، وهما من أصدقائي الأعزاء.

كما أنهما دائميْ الذكر في جلساتهما مع معارفهما، قصة سفرهما إلى فرنسا واستقرارهما فيها، بفضل حزب العمال الكردستاني وقائده ومؤسسه عبد الله أوجلان.

أردتُ من ذكر هذه القصة الحقيقية، بمناسبة عيد ميلاد القائد في 4 نيسان، القول: لقد سبق عصره هذا الرجل الفيلسوف الفذّ، وربط الفكر بالعمل والممارسة والسلوك، وكرّس حياته كلها في خدمة قضايا الإنسان، ودفع ضريبة قلَّ نظيرها في عالم السجون، الذي يرزح في أغلاله منذ أكثر من ربع قرن في ظروفٍ قاسية مزرية؛ جرّاء مؤامرة دولية حاكها ونفّذها النظام الفاشي في أنقرة.

ولن يهنأ لنا العيش ولن يعانقنا الفرح الحقيقي ما لم نحتفل بخروجه من عزلته وسجنه في إمرالي، لمتابعة اللقاء والنضال مع جماهيره ومن جميع المكوّنات التي عشقت فكره وسيرته، لنصلَ إلى تحقيق الحلم التاريخي في تآخي – ليس فقط شعوب المنطقة – بل شعوب العالم قاطبةً، في ظل نظامٍ دوليّ جديد يسوده السلم والأمان والتطور والازدهار.❑❑

عندما يصبح الله خادما عند أمريكا

أحمد عمر زعبار
تونس

❑ ليس لدي الرقم الدقيق لآيات القرآن الكريم التي تدعو إلى النظر والتفكر واعتماد العقل ك:لعلهم يبصرون أو لعلهم يعقلون أو لعلهم ينظرون وما شابهها من آيات بصيغ مختلفة لكنها تدل على ذات الغرض والمعنى والقصد ك: أفلا يعقلون أفلا ينظرون أفلا يبصرون والتي تفيد في سياقها داخل السور النظر العقلي والبصيرة وليس البصر فقط ولكن يمكنني الإشارة إلى أن كلمة "يتفكرون" وردت في القرآن الكريم عشر مرات، وكلمة "لعلهم يتفكرون" ثلاث مرات، وكلمة "يعقلون" اثنتان وعشرون مرة...

ليس لدي الأرقام الدقيقة التي تدعو المسلم للتفكر واعتماد العقل في أمور دينه ودنياه لكن المؤكد أنها كثيرة ومتعددة وموزعة على عدد لا بأس به من سور القرآن ولعله من المهم جدا في هذا المقام التمعن في معنى أن تكون أولى آيات القرآن أمرا بالقراءة (قراءة الكون ووجودنا فيه) وفعل القراءة لا شك عقلي ويدعو للتفكر والتأمل

ربما تبدو هذه المقدمة خارجة بعض الشيء وغير مرتبطة بموضوع هذا المقال لكني أجدها ذات علاقة عضوية بمضمونه فنظرة ولو سريعة لواقع الحركات الإسلاموية التي تتصدر المشهدين السياسي والدعوى في العالمين العربي والإسلامي ستضعنا أمام حقيقة تناقض هذه الحركات الصارخ والقاتل حينما يتعلق الأمر بالعقل... على المستوى النظري ستجد إصرارا من الإسلامويين على أنّ الإسلام دين العقل وأنه الدين الوحيد الذي لا يخالف العقل ولا يناقض الفطرة, أمّا على المستوى العملي فإنهم ينسون وجود العقل ويصبحون قطيعا يردد كالببغاء أقوال الشيوخ ويتبع أحكام وأوامر الفقهاء دون أدنى مساءلة أو مراجعة ودون استشارة العقل (ما يعني تعطيل العقل تماما).

بعض تصريحات ومواقف عدد من قادة العالم(الكفار) وعدد من قادة الإسلام السياسي تضعنا أمام أسئلة يجب أن تطرح كما يجب أن توضع وتوضح اجاباتها من أجل إدراك ما يحدث وإيقاف النزيف فمعرفة الداء هي نصف الطريق في رحلة العلاج.

أضع بين يدي القارئ عددا قليلا من التصريحات الدالة لشخصيات قيادية أمريكية (كفار) تليها تصريحات لعدد من الشخصيات القيادية للحركات الإسلاموية وهي تصريحات كما قلت تجبرنا على طرح عدد من الأسئلة الموضوعية والجوهرية حول واقع أوطاننا والدور الخياني والتدميري الذي لعبته وما زالت تلعبه جماعات الإسلام السياسي ما قد يفتح عيوننا أمام الكم الهائل من الأخطاء بل الخطايا ومن الجهل ببديهيات الأمور المخالفة لمبادئ الإسلام بل والمعادية له.

أبدأ بالمواقف والتصريحات:
1 منذ أكثر من عشرين سنة صرحت هيلاري كلنتن في الكنغرس الأمريكي أنّ أمريكا موّلت "المجاهدين" الإسلامويين في أفغانستان وساعدت في تدريبهم ونشر أدبياتهم وتقديمهم في صورة الأبطال
2 الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان الذي ساهمت ادارته بكل قوة في دعم (الجهاد) الأفغاني استقبل سنة 1985 قادة "المجاهدين" وفرش لهم السجاد الأحمر، وأطلق عبارته المشهورة بحقّهم، والتي يشبّههم فيها أخلاقياً بالآباء المؤسسين لأميركا! These gentlemen are the moral equivalents of America's founding fathers"، وقال "إنهم مدافعون عن الحرية".

3- الجنرال وزلي كلارك قائد القوات البرية الأمريكية والقائد الأعلى للحلفاء في أوروربا (1997-2000) اعترف في حوارا ت متلفزة أن أمريكا خططت لاحتلال 6 دول عربية هي العراق, سوريا, ليبيا, لبنان, السودان, الصومال إضافة إلى إيران.
4- جون بولتون مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد ترامب اعترف أنه شارك في التخطيط لانقلابات في دول من العالم منها دول عربية وإسلامية
5- السيناتور الأمريكي رتشارد بلاك الذي كان يعمل جنرالا في الجيش الأمريكي يعترف أن أمريكا دمرت سوريا ودول عربية أخرى باستخدام الإسلام السياسي (المجاهدين).
6- هذه التصريحات والاعترافات ومئات التصريحات الأخرى والوثائق موجودة (بعضها صوتا وصورة) على الأنترنت وكثير منها تصريحات رسمية لقادة غربيين في موقع القرار وكانوا شهودا على تلك القرارات أو مشاركين في اتخاذها

في الجانب الآخر:
1- القرضاوي مفتي الاسلامويين وشيخهم الأكبر أفتى منذ أكثر من 30 سنة بشرعية الاستعانة بالكفار (حسب تعبيره) والاعتماد عليهم لاحتلال بلاد الإسلام (العراق في الحالة المذكورة). الفتوى موجودة ووقعها القرضاوي و400 (عالم وشيخ وفقيه) وعارضها حينها عدد قليل من شيوخ العالم الإسلامي كان من بينهم الدكتور كمال الهلباوي رحمه الله الذي طالب القرضاوي بمراجعة فتواه والتراجع عنها وجرت بينهما مراسلات حدثني عنها الدكتور الهلباوي رحمة الله عليه.
2- القرضاوي يفتي بأن الناتو يساعد المسلمين في ليبيا
3- القرضاوي يفتي أن الرسول محمّد لو وجد في عصرنا لوضع يده بيد الناتو(الطاهرة)
4- النهضة (حزب الإخوان) هو الحزب الوحيد في تونس الذي عارض إدراج بند تجريم التطبيع مع الكيان الصهيوني في الدستور رغم أن خطاب الحزب الدعوي والسياسي لا يكف عن شتم إسرائيل واعتبارها العدو الأول للأمة الإسلامية
5 أمير المؤمنين (كما يسميه أنصاره الإسلامويين) أردوغان متحالف استراتيجيا مع دولة إسرائيل .. يُذكر أن التحالف الاستراتيجي يقتضي في حال تعرض أحد الطرفين لخطر وجودي تدخل الطرف الآخر عسكريا للمساعدة والإنقاذ ويعمل الطرفان ويخططان كجيش واحد لا كجيشين) .. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ضد من سيدافع أمير المؤمنين اردوغان إذا تعرضت إسرائيل للخطر؟ ضد الفلسطينيين؟ أليس كذلك؟ ضد أبناء القدس قبلة المسلمين الأولى وضد المرابطين فيها ...

قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله. وهم كذلك"، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: "ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس.(انتهى) هؤلاء هم الذين سيحاربهم زعيم الإسلام السياسي وحركة الإخوان المسلمين أردوغان .. وعليكم أن تختاروا إماّ أن تتبعوا الرسول (صلع) أو أن تتبعوا أردوغان ....يُذكر أن تركيا عضو فاعل في حلف الناتو الذي سيصافحه الرسول محمد لو كان بيننا ولها ثاني أكبر جيش في الحلف
6- أعضاء تنظيم الإخوان المسلمين في دولة الكيان الصهيوني أعضاء في الكنيست الإسرائيلي ووافقوا على إقرار قانون يقضي بقصف الفلسطينيين وهدم منازلهم في حال تظاهروا ضد إسرائيل.

هذه بعض مواقف حركة الإخوان المسلمين, الحركة الأم التي تمثل حركات الإسلام السياسي عموما وهي صورة حقيقية ودرس في الغباء السياسي والعمالة وخيانة المبادئ وكل هذه المواقف والتصريحات وغيرها كثير موجود على الأنترنت ولا ينكره الإسلامويون ولا يتبرأون منه

بعد كل هذه المواقف والتصريحات ألا يحق لنا أن نتساءل ونسأل:
-هل يحتاج الله أن يصافح رسولُه (الكفّار) أعداء الإسلام من أجل نشر الإسلام؟ هل يحتاج الله من أجل نشر الحق أن يتحالف مع الباطل؟ أليس الله طيبا لا يقبل إلا طيبا؟
-إذا تحالف الله مع الباطل من أجل نشر الحق فأين سينشره وقد تحالف مع أهل الباطل لقتال المسلمين؟

-إذا كانت رسالة الإسلام هي الحق فهل يصطفي الله لنشرها أفضل خلقه أم يختار المجرمين والخونة والعملاء من فصيلة:
*العرعور: مجرم وداعية حقد وقتل ومفتي السلطان
*أبو بكر البغدادي: مجرم وذباح وقاتل
*راشد الخريجي (شهر راشد الغنوشي): لم يترك فاسدا في السياسة التونسية إلا وتحالف معه ولم يتخذ موقفا من حزب أو زعيم إلا وأنكره واتخذ نقيضه إضافة إلى أن حزبه رفض بعد وصوله إلى الحكم إقرار قانون تجريم التطبيع.
*القرضاوي مفتي السلطان ومفتي الناتو وداعية التحالف مع الغزاة

* أردوغان المتحالف عسكريا وإستراتيجيا مع أعداء الدين الإسلامي ومحتلي قبلته الأولى
*القتلة والذباحين من محاربي داعش؟

من حقنا أيضا أن نسأل ونتساءل:
- لماذا لم يعلن الإسلامويون الحرب على أية دولة "كافرة"؟ لماذا كل حروبهم ضد المسلمين العاديين وفي الدول الإسلامية؟ هل هي صدفة؟ غباء؟ مكر؟ أم عمالة وخيانة؟ لماذا كل حروبهم تنتهي لصالح القوى العظمى ولا يستفيد منها المسلمون شيئا (أفغانستان, العراق, سوريا, ليبيا واليمن؟ -لماذا لم ينصر الله الإسلامويين في أي بلد ولم يرسل لهم ملائكته لتحارب معهم بل دمرهم ودمر بلدانهم؟لماذا لم تنجح أي دولة وأي مجموعة حاولت تطبيق الشريعة إلا في تخريب البلدان التي وجدت فيها؟ هل يوجد مفتي واحد من دعاة الفتن والحروب يعيش فقيرا أو يعيش عيشا غير مرفه أم أن ثرواتهم بملايين الدولارات؟ (من التجارة؟.. تجارة الفتاوي) هل الإسلام دين مبادئ أم دين التجارة بالمبادئ؟؟

ربما لسنا في حاجة للتفكير العميق للإجابة عن هذه الأسئلة فالإجابات كلها مضمنة في تصريحات هيلاري كلنتن ووزلي كلارك وجون بولتون ورونالد ريغن ومئات الوثائق ذات المضمون نفسه الذي ورد في تصريحاتهم.

نقاط لا بد منها
~ربما يكون مفيدا للخطباء أن يشيروا في خطبهم ودروسهم إلى أنّ ماليزيا وأندونيسيا و20٪ من أراضي الصين وجزء من الفلبين وسنغافورة وجزر الملديف وفيتنام وأجزاء من الهند دخلت الإسلام تأثرا بأخلاق التجار المسلمين وصدقهم وأمانتهم وحسن تعاملهم واحترامهم للآخر الغير مسلم ذهبوا تجّارا فكانوا بأخلاقهم خير من نشر الإسلام في تلك المناطق ومناطق أخرى في أفريقيا كالنيجر ومالي وموريتانيا والسنغال وغانا ونيجيريا التي دخلت شعوبها إلى الإسلام تأثرا بأخلاق التجار والمتصوفة وليس بالذبح والقتل والحقد وفتاوي جهاد النكاح .. هذه المناطق التي لم تعرف إلا القليل جدا من المعارك والتي آمنت بالإسلام واعتنقته سلما ورغبة وليس خوفا تمثل شعوبها حوالي ثلث عدد المسلمين في العالم.. أليس من المفترض أن يعني هذا للإسلام والمسلمين شيئا ؟؟؟.

~يعتقد الإسلامويون أن المنطق العقلي ومنطق الحياة يقضيان أن يسود الإسلام ويحكم ويقود العالم إلى خلاصه لكنهم وعلى مدى عقود لم يفعلوا أكثر من أن يكونوا بيادق الحروب الأمريكية ضد بلدانهم وجنودا لخدمة مشاريع التقسيم والتدمير والإفقار وسرقة ثروات أوطانهم وحوّلوا الله خادما لمصالح أمريكا واستراتيجياتها للهيمنة ... بعض الوثائق تشير إلى أن سياسات الأمن القومي الأمريكي ركزت على حروب البروكسي لأن مقتل الجنود الأمريكيين في الحروب خارج أمريكا يمثل نقطة ضغط قوية ضد الحروب الأمريكية لذلك يتم الاعتماد على حروب البروكسي ويمثل الإسلامويون بمنطقتنا الذراع الأمريكية التي دمرت عددا من دول المنطقة التي تحدث عنها وزلي كلارك (العراق, سوريا, ليبيا, لبنان, السودان, الصومال إضافة إلى إيران.)
~الخيانة ليست وجهة نظر .. الخيانة أحقر وأنذل جريمة حتى وإن أمر بها الله وحاشاه أن يفعل
~الإسلام السياسي جريمة في حق الإسلام وجريمة في حق الله وجريمة في حق المسلمين وجريمة في حق الإنسانية وجريمة في حق الحياة ❑❑

الإستعمار المتحول

د. خليل قانصوه
لبنان

❑ أعتقد أن الهجرة هي ولادة جديدة غير طبيعية (غير بيولوجية – خارج علم الأحياء) تواصلا مع الولادة الأولى من أم وأب، في البلاد الأصلية. من البديهي انني لست هنا في معرض الكلام عن الهجرة وأسبابها واهداف المهاجر من ورائها، سواء كان مهاجرا موسميا، مؤقتا، أو كان دائم الإقامة مستوطنا. فهذا موضوع ذو تفاصيل عديدة لا امتلك الأهلية اللازمة للغوص في أعماقه ناهيك من أن هذه المقالة لا تتسع لذلك.

ما أنا بصدده في الواقع هو مقاربة بين الهجرة من جهة وبين الإستعمار من جهة ثانية، بعد التأكيد طبعا، على أن الهجرة هي في جوهرها نزوح أو لجوء قهري نتيجة ظلم أونفي أو خوف من الموت، و بالتالي هي مبادرة فردية أوأسرية، تسلمية، استجدائية إلى حد ما، طلبا للأمان العمل. بالضد من الإستعمار بما هو حملة عسكرية تطلقها دولة من أجل أحتلال أراضي بلاد غير بلادها، بهدف التوسع و ضمها نهائيا، أواستغلال مواردها و سكانها.

ما يهم هنا هو الإشارة إلى أن ألاستعمار يتمثل بسيرورة عنف غايتها السطو بالقوة إلى حد إبادة السكان الأصليين أحيانا برمتهم أو بإخلاء البلاد منهم. فمن البديهي في هذا السياق أن تصنيف الهجرة أو النزوح في لائحة قيد الحركات الإستعمارية، هو في حد ذاته إجراء تعسفي وعبثي ينم غالبا عن كراهية عنصرية مضمرة. وهذه ظاهرة يعاني منها المهاجرون في الدول الغربية.

أكتفي بهذه التوطئة لأنتقل من بعد إلى مسألة تحول الإستعمار إلى "استعمار جديد"، بعد أن حازت بعض المستعمرات إستقلالها الحقيقي احيانا، عن طريق نضال تحريري ولكنها أخفقت في المحافظة عليه، بينما منحت بعضها أستقلالا شكليا أخذ يتكشف تدريجا بمرور الوقت.

الجدير بالذكر هنا، ان الكثيرين من رواد حركة التحرير الوطني ضد الإستعمار قتلوا غيلة.

مهما يكن فإن اللافت للإنتباه في هذه المسألة هوأن الدولة الإستعمارية اغتنمت لا شك في ذلك، حصيلة استعمارها، ثراوات هائلة وقدرات بشرية، مادية وثقافية، ضاعفت إمكانياتها الذاتية، و لكن يا للأسف، كما أظن، اساءت استخدامها، مثلما اساءت المستعمرات السابقة استخدام الإستقلال، حيث تحولت إلى مستعمرات بالوكالة بواسطة "السلطة الوطنية" التي تولجت أمر خنق حركة التحرير والتحرر في المهد. فالرأي عندي أن الدولة الإستعمارية نفسها صارت بدورها مستعمرة من"الرسمالية" العملاقة التي نمت في ظروف النهضة العمرانية والصناعية والعلمية، التي تسارعت وتيرتها بفضل حروب المنافسة الإستعمارية وعائدات المستعمرات.

مجمل القول أن الرأسمالية الجديدة، استولت على الدولة الإستعمارية وامسكت بالسلطة بحزم، أكاد أقول بصورة دائمة، وأعادت هيكلتها لكي تصير ملائمة وقادرة على خوض حروب أستعمارية جديدة، ليس فيما بينها، لأن أكثرها تمتلك ترسانة نووية أو أنها قادرة على امتلاكها، وإنما في أطار أحلاف عسكرية، من أجل السيطرة على الموارد الطبيعية على مستوى كوكب الأرض كله.

لسنا بحاجة للإطالة في هذا الموضوع، بينما الحرب مشتعلة في الراهن بين حلفين، المعسكر الغربي تحت قيادة الولايات المتحدة الأميركية من جهة وحلف اوربي - أسيوي تحت قياد روسيا الإتحادية من جهة ثانية. فمن البديهي القول في ختام عرض سريع لهذه الملحوظات، ان الحروب ألتي أشعلها المعسكر الغربي في العقود القليلة الماضية، بدءا من أفغانستان ووصولا إلى أوكرانيا، مرورا بيوغوسلافيا العراق، سورية، لبنان، فلسطين، ليبيا، تونس، مصر، والجزائر، انعكست عموما سلبا في مجتمعات دول المعسكر الغربي حيث تعم في الراهن الإضرابات و التظاهرات أحتجاجا على رفع سن التقاعد، و تفشي البطالة و تمدد الخصخصة المتواصل إلى المستشفيات العامة والمدرسة الرسمية على سبيل المثال، مقابل الارباح الخيالية التي تحققها المؤسسات المالية والشركات المتعددة الجنسيات التي تنتج وتصنع في البلدان التي كانت سابقا مستعمرات. ❑❑

حديث الموسيقى

هاشم معتوق
العراق

❑الغابة المحنطة

عندما تستيقظ بعد موت طويل
ترى نفس المكان لم يتغير
التجاعيد تصير الغبار الغبار يصير التراب
التراب يصير الصخرة كالأيام اليابسة
الموضوع ضرورة لكنه كالنكتة الساذجة
التي تعيد نفسها بأشكال متعددة
الكتابة أكوان جديدة وآلهة تموت
عند نهاية صاحبها
الترويج للإله من قبل الآلات الدينية بعد
موته
معدات باطلة
لماذا نستيقظ ثم ندخل في السبات اللانهائي
لماذا تبقى الأحلام كالأنهار والبحار مسرعة
لماذا تبقى النظرة للأعالي مستمرة ومدهشة
الحياة كالشعر التقليدي والموسيقى السمفونية
الأسيرة للكثير من التقاليد
الإنسان كائن لا نهائي من الصعوبة
التلاعب في هذا الموضوع أو المضمون

حديث الموسيقى

الكتابة رقصة في الريح مثل طفلة تائهة في
الطريق مثل الشمس أثناء هطول المطر
الكتابة امرأة مشبعة
بالغزل والإنسجام والتصالح
كالرجل الذي لا يفارق المرعى
ويقفه في محاربة الذئاب
الكتابة لايغيب وجه صاحبها ولا تراه
العيون
الكتابة أنك تعلم الكلمات أموات ليس إلا
لكنها ممزوجة بدم اليقين
الكتابة كالورد تصاب بالبرد ووخز الحر
والهدوء وانهيار الأعصاب والجحيم أو
الجنة
الكتابة الناي الحزين المغرم بالفن وينشد
للفرح
الكتابة المريض ما بعد الشفاء
الحياة ما بعد الموت

الأم الطيبة

البداية تجعلنا نستجمع
كل التاريخ الذي مضى
البداية التي تتذكر الحياة الأولى كاملة
البداية الخالية من أمراض القلب
وتشوهات العقل
البداية عندما تكون من الميتين القدامى
البداية كالتراب بلا أظافر
أو أنياب تعض بها الزهور
البداية مثل رجال المافيا الإيطالية
رجال قلوبها فارغة من الخوف
البداية الإنسان كالنحاس القابل للإنصهار
كي تصنع منه سكينا
البداية الإنسان بإمكانك أن تصنع منه
الشجرة المثمرة

الشكر الجميل

الإنسان كالأغنية التي لا يمكنها الثبات
أمام المتغيرات
كالتيارات السالبة القلقة
بالوقت الذي تذهب روحه للتكامل
يبدأ الجسد بالتناقض والتناقص
نحن على الطريق المستقيم
الى بيت الأيتام والمساكين
نحن في الطريق الى التكنلوجيا
التي سوف تزيد من الترهل والكسل
جوق من الطبالين
الحياة لا تسمع
أصوات النهار
ولا نباح المريدين
ليس الليل بأكثر من ساعات
لصراخات الأنين
ليس الليل بأكثر من قصيدة
مملة مكررة
الصدق هو الحداثة
الحداثة هي الصدق

الأرض الجليلة

نحن نفكر في حرية الفراشات
والسلام الذي حولها
لأن حقيقتنا ضعيفة وبائسة
نحن نفكر بالقمر كونه خاليا
من التخاطر والتشتت
القبر ليس شرسا وقاتلا بل يذكرنا بالنهاية
كالميت الذي يجعلنا لا نريد أن نرى موتنا
نتعاطى الزهور محاولة منا
للإمساك بأذيال البراءة
الإصغاء للموسيقى الدليل على أن الروح
جذورها وأصولها جميلة
هذا هو الإنتماء بعينه
هذه الأرض التي تغرس الأديانُ
فيها نبتتها لتنمو
من ثم تخضر في كل أجزاء الجسد

الأرقام المتكسرة

بما أن المسافة بيننا وبين الأرض قريبة جدا
لهذا نحتاج الدقة في تحليل التفاصيل
المسكين الذي هو الإنسان يريد مخرجا آمنا
تتقلص فيه الآلام الى أقل الحدود
أقصى درجات التقمص
في الطبيعة البوذية والمحمدية
هو البحث عن السلام
الطبيعة المكان الأول الإنسان في المرتبة
الثانية
لكون الطبيعة طيبة وحبابة تمنحنا أن نتقاسم
الهمس مابيننا وبينها
الأيام ضئيلة وقريبة من التلاشي
الطبيعة لاتعرف في الأيام والأعداد❑❑

ابن عربي حياته وفكره

د. عبد الغني سلامه
فلسطين

❑ في مدينة مرسيَّة الأندلسية، ومن أسرة متدينة متصوفة، وُلد محمد بن علي الحاتمي المعروف بـ»ابن عربي»، عام 1164م، كان والده فقيهاً، وعُرف عنه الزهد والتصوف، وقد حرص على تلقين ابنه علوم الدين منذ الصغر، فحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث.
اشتغل والده في بلاط سلطان الموحدين في إشبيلية، أبو يعقوب يوسف الأول، وهناك ترعرع «ابن عربي» وتلقى تدريباً عسكرياً، وما أن بلغ الرشد حتى تولى منصب نائب حاكم إشبيلية.

كانت حياته شبه مثالية: رب أسرة، وميسور الحال، ورجل دين محترم، وصاحب مكانة مرموقة.. وفي العقد الثاني من عمره دخل إلى عالم الروحانيات، فانقطع عن الدنيا واعتزل الناس، وقرأ كتب المتصوفين والحكماء والفلاسفة، لكنه ظل مسكوناً بهاجس الرحيل، فتنقل ما بين مكة، والطائف، والموصل، وحلب، وأرمينيا، وقونية، والقاهرة، وبغداد حيث التقى الصوفيَّ المعروف «السهروردي».

طوال ترحاله الذي دام قرابة 23 عاماً لم يحمل معه في قلبه سوى «نظام»، حبيبته ومُلهمته التي كتب في مدحها «ترجمان الأشواق». وكان قد التقاها عندما زار مكة، وهي كريمة إمام الحرم، الشيخ الفارسي ابن رستم الأصفهاني، ورأى فيها وجهاً حسناً وروحاً مشرقة وعقلاً نيراً.. فتنته حتى اعتبرها رمزاً طاهراً للحكمة الخالدة، وبعد زواجهما، ساهمت «نظام» في تنقية سريرته وتصفية حياته الروحية.

حط رحاله أخيراً في دمشق، واستقر فيها بقية حياته، وكان أميرها واحداً من تلامذته المؤمنين بعلمه والمتبعين لتعاليمه. وعاش فيها مُعلماً وفقيهاً، ولقّب بـ»الشيخ الأكبر»، و»سلطان العارفين»، وكان له مجلس يقصده طلاب العلم من كافة الأنحاء، ومن أبرزهم جلال الدين الرومي المعروف باسم «مولانا».. توفي عام 1240م، ودُفن في جبل قاسيون.

بقي من مؤلفاته أقل من 100 مجلد في الشعر والفلسفة والتصوف والفقه، وأشهرها «الفتوحات المكية» وهو كتاب تضمن آراءه الصوفية ومبادئه الروحية، و»تفسير ابن عربي» الذي ضم تفسيراً للقرآن وشرحاً لمعانيه، و»اليقين والإعلام بإشارات أهل الإلهام»، و»شجرة الكون» وغيرها، وقد تُرجمت أعماله إلى اللغات الفارسية والتركية والأردية.

كانت مقولاته وشعره وفلسفته مثار جدل، فمن أحبوه وآمنوا به اعتبروه ملهم المتصوفة، وشيخ العارفين، ومن أولياء الله الصالحين، بينما رآه بعض الفقهاء كافراً زنديقاً وضالاً ومضللاً، ومنهم «ابن العز عبد السلام» الذي وصفه: «شيخ سوء وكذاب»، و»ابن تيمية» و»ابن القيم»، اللذان وصفاه بالزنديق، و»الذهبي» الذي قال عن عرفان بن عربي: «فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر، لا يعرف من العلم شيئاً سوى سورة من القرآن، يصلي بها الصلوات، خير له بكثير من هذا العرفان».

وقد خص بعض الفقهاء مؤلفات عديدة تبين كفر «ابن عربي»، ومنهم «برهان الدين البقاعي»، في كتابه «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي»، كما كتب «ابن نور الدين» مجلداً في الرد على «ابن عربي» سمّاه: «كشف الظلمة عن هذه الأمة»، وكذلك كفّره «شهاب الدين التلمساني»، و»سيف الدين بن بلبان»، و»قطب الدين بن العسقلاني»، و»القاضي زيد الدين الكتاني»، الذي شبّه أقواله بأقــوال المجانين، والقاضي «سعد الدين الحارثي»، الذي وصف مقولاته بالضلالة والزندقة، وغيرهم.

تبنّى ابن عربي «عقيدة «وحدة الوجود»، وقال: «ما في الوجود إلا الله»، و»أنّ جميع ما يُدرك بالحواس هو مظهر لله تعالى»، و»العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء».. وغيرها من المقولات التي اعتبرها الكثير من الفقهاء كفراً، لأنها لا ترى فرقاً بين الخالق والمخلوق، بل كل موجود هو الخالق، كما رأوا أن مقولات «ابن عربي» بوحدة الوجود تقود إلى اعتقاد بسقوط وجوب عبادة الخالق، لأنه بحسب فهمهم لمقولته: «العابد هو المعبود»، و»الشاكر هو المشكور».

كما كفّره الفقهاء لقوله بوحدة الأديان، واعتقاده بأن العالم كله هو عين ذات الله تعالى، فقال: «تستوي الأديان كلها لأنها تشترك في الجوهر، وبالتالي فإن تعدد الأديان والمذاهب هو تعدد للوسائل التي توصل الإنسان لغاية واحدة هي عبادة إله واحد».

ظهر «ابن عربي» أواخر العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، حيث ازدهرت الفلسفة والأفكار العقلانية وعلم الكلام، وكانت بغداد والأندلس ساحات للحراك الفكري والتيارات العقلية الجدلية، وقد برزت في تلك الحقبة كوكبة من أعلام الفكر مثل الراوندي وابن طفيل وابن رشد والرازي، وعدد من المتصوفة مثل الحلاج والسهروردي والرومي وغيرهم، وقد تأثرت فلسفة «ابن عربي» بهؤلاء جميعا، وخاصة بنظرية الأشاعرة في (الجوهر والأعراض)، وبنظرية الحلاج القائلة إنّ الناسوت هو المظهر الخارجي للاهوت، كما تأثر بنظرية أفلاطون في (الواحد والكثير).

حاول التوفيق بين تصورين مختلفين للألوهية: تصور الإله الميتافيزيقي المجرد من الصفات المشخصة، وإله الأديان الذي له هذه الصفات، لكنه ظل مؤمناً بوجود إله، هو أصل كل موجود، وهو وحده الغني على الإطلاق، وكل موجود يفتقر إليه، وظل متشبثاً بعبادته وحبه والتقرب إليه، بعاطفة دينية متقدة. لكنه بذلك هدم فكرة السببية الطبيعية ليقيم مقامها السببية الإلهية؛ إذ الحق وحده هو الفاعل لكل شيء، وهو وحده الذي يمد الموجودات بما تفتقر إليه من حاجات، ومن خلال نظريته في «وحدة الوجود»، ثار على سائر المفاهيم الدينية التي كانت سائدة آنذاك، كالخلق وكالربوبية والعبودية والألوهية وصفات الله.. وقدمها في صور جديدة غير مسبوقة.

قد نتفق مع فكر «ابن عربي» أو نختلف معه، إلا أنه سيبقى رمزاً للفكر الإنساني المتجدد، ومن أشجع دعاة الحرية ونشر الحب والمحبة والإخاء والتسامح والمساواة والترفع عن كل أشكال التعصب الديني والمذهبي.. فقد تركزت فلسفته على الواجبات والمسؤوليات التي يتقاسمها كل البشر روحياً وأخلاقياً وفكرياً، لا على ما يُفرّقهم؛ لذا يمكن اعتباره مصدر إلهام لتشكيل حضارة عالمية إنسانية أخلاقية.

وأهم ما مثله فكره: دعوته لوحدة الأديان، ونبذه الطائفية، ونظرته للإله نظرة حب وعشق مجرد، لا نظرة خوف وطمع، وفهمه للتدين كمنزع فردي روحاني، لا كمنزع جماعي سياسي، ونبذه التكفير والعنف.
لكن المؤسف أن فكر ابن عربي ظل مغيباً، بعد أن انتصر عليه الفقهاء، وفرضوا تأويلهم الخاص الضيق والسلفي على الدين.. وما زلنا ندفع ثمن هذا الانتصار ❑❑

ولو بعد حين

عايدة بدر
مصر

❑ أمي المسافرة منذ سنوات
تركت باب الحديث مواربا
وامتطت الصمت براقا
كلما سقط غصن يابس من فوق شفتي الكلام
ابحث عن بعض وريقات شمس
كانت قد تركتها في أحد أدراج الذاكرة
كلما تعالت خشخشة الريح
وتصاعد عوائها خارج نافذتي
أعيد طلاء جدراني بلون السماء
الذي كانت تحب أن تقشره ليصلني صوتها
أمي المسافرة منذ سنوات
لم تترك لي عنوان البيت
ويبدو المفتاح الذي أحمله ليس لهذا الباب
الذي يغلق عليها
كلما قرعت أجراسها تنبهت الوحدة
وهرعت تفتح لي بابتسامة
تحاول تلهيني ببعض وجوه عابرة
ولا تجيب عن سؤالي الملح
متى تعود أمي من سفرها؟
متى ينتهي هذا الانتظار؟
ومحطات اللقاء بيننا يا أمي
كادت أن تلتقي عدة مرات
فكنت ألمح وجهك يبتسم لي من بعيد
لكن ما تلبث الحياة أن تعاود غرس
المسافات بيننا مرارا
وإحالة اللقاء إلى مواعيد جاحدة
باللهفة إلى رؤية وجهك
فتقف في المسافة الفاصلة بيننا بقهقات خبيثة
تشتت انتباه عقاربها السامة
فلا تضبط مواعيدها على مواقيت الحياة
ولا مواقيت الموت
فأبقى حيث أنا في دائرة
لا تنتهي من الانتظار
وأنت تبتسمين من بعيد وتلوحين لي بإشارة
أن حضنك الدافئ ما يزال يتسع لي
ولو بعد حين❑❑

متواليات قصصية

❑* المرآة *

طالب عباس الظاهر
العراق

- دخان –

هرع إلى المرآة، أمعن النظر فيها، حدّق جيداً كي يطمئن على نفسه... وكم شدّه العجب، حينما لم يرَ سوى دخان سيجارته المتراقص في الفراغ!

- كبرياء –

انزعج أيّما انزعاج حينما لمح وجه الشخص الذي في المرآة باسماً، كأنه يهزأ من جرحه في شماتة حاقدة، رغم إن الدموع لمحها فقد كانت تغرق عينيه الحزينتين!

- ثقب –

لإعادة تشكيل صورته، حاول جمع قطع مرآته المهشمة، قلقه على مكمن النبض يتصاعد... أسفا جاء الجواب صادماً، مكان هذا الجزء مجرد ثقب أسود!.

* الظل *

- جرح –

غضب ظلّي مني بشدّة نتيجة صمتي واستطالة الطريق، وجَرَحَهُ تبرّمي من وحدتي وغربتي ووحشتي مع وجوده، ونسياني الدائم له... فرحل عني باكياً!

- رحيل –

قمت ولم يقم معي ظلّي، ربما أحب أن يبقى مسترخياً بفيء الشجرة، وربما تركني ورحل أثناء استراحتي؟ مازلت أبحث عنه دونما جدوى، دون أن لم أعثر له على أيّ أثر!

- عثور-

بعد دفني بقي ظلّي ينتظر، أظنه حائر بغربته بعدي، لعلّ أحداً يعثر عليه، ويريحه بدفنه معي، لكن مع الأسف لا أحد أنتبه لوجوده!

سؤال تلقائي

بم تفكر؟
يسألني الفيس بوك؟
بم أفكر يا إلهي؟ اللعنة... لعنة التفكير هنا أيضاً؟!
لا أدري.. ولكن ما أدريه ومتيقن منه إني أتمنى بأن لا أفكر أبداً!

بم تفكر؟
بم أفكر...بم؟!
لا أدري.. شعرت برأسي يؤلمني حالما استيقظت!
كأنني حتى في النوم لا أستطيع مفارقة لعنة التفكير!!

بم تفكر؟
أفكر.....!
حسناً أفكر بأخذ هدنة سلام من حرب التفكير!❑❑

عميد الشعر العربي وراءد حركة الحداثة: أبو تمّام

❑ مع النضج الحضاري والفكري للأمم، ينبلج في الأفق الرحيب المواهب الباحثة عمن يحتضنها ويستمع لها حتى تتفتَّح قريحة موهبتها وتزدهر في السَّاحة الأدبية والاجتماعية. وعلى الجانب الآخر، يوجد فريق العلماء الذين ينقِّبون في تاريخ الأوائل على نحو منهجي علمي، ويعنون بوضع منهاج علمي وأدبي ليساعد المواهب. ونتيجة للجهود المتراكمة، قد يظهر روَّاد التجديد الذين يمزجون أشعارهم بروح العصر وما استحدث عليه من علوم ومصطلحات. وكل هذه الفرق المتكاتفة الجهود، والمتباينة المهام تخرج أجيالًا واعية من الشعراء. وهذا كلام علمي ومنطقي ولا يختلف عليه حتى الفرق المتضاربة الأهواء. أما العجيب والغريب هو توافره شخص واحد اضلع بتلك المهام بأكملها ببراعة؛ ألا وهو عميد الشعر العربي ورئيس قسم سحر البيان ورائد التجديد والحداثة الشاعر العبَّاسي "أبو تمَّام" الذي هيمن على السَّاحة الأدبية في عصره لدرجة أن صغار الشُّعراء والأجيال الجديدة منها لم يلمع نجمها إلا بعد موته.

و"أبو تمام" هو "حبيب بن أوس بن الحارث الطَّائي" (188-231 هـ) قيل عنه أنه رومي الأصل ولكن تم نسبه إلى قبيلة طيء التي تنتسب لها والدته. ولقد ولد شديد الفقر لأب يعمل خيَّاطًا، وأراد أن يتعلَّم ولده مهنة الحياكة مثله. بيد أن "أبو تمَّام" سافر إلى مصر، ولكن ليحيك موهبة كبرى أساسها الشَّغف بالتعليم والمنهاج العلمي، ثم تطبيق ذلك على قصائد ثورية المعنى والمضمون حاكها باقتدار على أسس منهاجية.

وفي عصره، كان بمصر أفضل أنواع مراكز التعليم وأشهرها فيما يشبه الجامعات اليوم، وهو "جامع عمرو بن العاص". بذل "أبو تمام أقصى جهده كي يتعلم بالرغم من فقره المدقع. فاتخذ مهنة سقاية الماء للطلاب والمتوافدين على الجامع، لكنَّه كان يحضر مجالس العلم ليكتب ما يسمعه ويستذكره، ويدوّن الآراء والشروح ويتناولها بالنقد والتحليل. لكن كان كلَّما ابتغى أحدهم شرب الماء، كان يقوم من درسه ويزاول مهام عمله. وبالرغم من هذا الفقر، لم يشعر أبدًا بأية نقيصة أو حاد عن دربه الذي ابتغاه لنفسه. بل على النقيض، كانت تفيض نفسه بالسماحة تجاه الآخرين، ومساعدة صغار الشعراء كي يثقلوا موهبتهم على أسس علمية، كما فعل مع الشاعر "البحتري" الذي تعلَّم السماحة والاحتفاظ بنفسية سوية من أستاذه "أبو تمَّام"، وتقديرًا لهذا الفضل كان "البحتري" يقدّم أستاذه على نفسه ويرفع من شأنه، مرددًا: "ما أكلت الخبز إلا به، وإني تابع له". تلك الأخلاق السَّامية التي تبتعد عن عصر ساد فيه التحاسد والصراعات بين الشعراء دليل أن "أبو تمَّام" كان لتلميذه بمثابة المُربِّي الفاضل الذي يهذب نفس تلميذه لتهذيب وعيه.

ويمكن القول أن "أبي تمام" هو نموذج لأستاذ أكاديمي بمقاييس هذا العصر. حيث تتلمذ في أكبر الجامعات في عصره، وهو مسجد عمرو بن العاص، وهناك اطَّلع على أخبار السَّابقين والآراء النقدية فيما صاغوه، وتعلَّم العديد من اللغات التي جعلته يقرأ في مراجع ومخطوطات الدول الأخرى ليتعرَّف على حضاراتهم وفنونهم وتدديد علومهم، وفي نفس الوقت يترجم ما قرأه حتى يستفيد منه الآخرين. وكان يحفظ عن ظهر قلب نحو ألفين من الأراجيز، بجانب ما يحفظه من أشعاره. وتمَّت ترقية "أبو تمَّام" في مخطوطات النقَّاد وجامعي سيرته إلى مرتبة "عميد الشعر العربي" لما قدَّمه من جهود بحثية تُحسب له؛ فكتابه الضَّخم الذي أطلق عليه "ديوان الحماسة" يعد مخطوطة عالية القيمة ليس فقط في حينه ولكن أيضًا إلى يومنا هذا؛ لما يجمعه بين صفحاته من أشعار السَّابقين التي قسمها إلى أقسام كثيرة منها الحماسة والفخر والهجاء والغزل، إلى غير ذلك من أغراض الشعر، إلا أن الكتاب أطلق عليه "الحماسة" لأن قسم أشعار الحماسة هو الأكبر.

وثورة "أبو تمام" على أنماط الشعر المألوفة في عصره جعلته يدخل في معارك سواء مع من عاصروه أو اللاحقين؛ حيث اختلف الكثيرين على طريقته في النظم وحسبوا أن التجديد وتفضيل الغير مطروق والغير مألوف في الأسلوب والمعنى إخفاقًا. مما أدخله في معارك تشابه تلك التي خاضها روَّاد تجديد الشعر في العصر الحديث، مثل نازك الملائكة وأدونيس وصلاح عبد الصبور وغيرهم. فمن المعروف عن شعراء كل العصور الاحتفاء باللفظ والمعنى سواء، وبذلك يقيمون أواصر التواصل مع المتلقِّي بما هو مألوف لديه. أما "أبو تمَّام"، فكان يقدّم المعنى على اللفظ كما ذكر عنه "ابن الرومي"، وغالبًا في جديده من الأساليب والمعاني كان يقطع صلته بالمتلقِّي حين يقذف على سمعه الغريب والغير مألوف، وحتى يتم فهم ما يقوله، كان المتلقِّي يعيد قراءة أشعاره ويحاول فهمها. بيد أن من لا يملك المعرفة لا يفهمه ويبدأ في الهجوم عليه. وعلى سبيل المثال، تهكَّم عليه أحدهم عندما صاغ قول "ماء الملام" كصورة استعارية وأخبره بسخرية أن يحضر له قدحًا منه، فكان رد "أبو تمام" ببديهة حاضرة وعقل واعي: "عندما تحضر لي ريشة من جناح الذُّل"، وذلك بإشارته للآية القرآنية: "واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة وقل ربي إرحمهما كما ربياني صغيرًا". ولقد قال له أحدهم متهمًا: "لما لا تقول ما نفهم"، فرد "أبو تمام": "ولما لا تفهمون ما أقول".

د. نعيمة عبد الجواد
مصر

وبسبب ذلك صار الشَّاعر "أبو تمام" من الشعراء الأكثر جدلًا سواء في موهبته الشعرية أو قوله. وفي ذلك يقول "المسعودي" في "مروج الذهب" : "والناس في أبي تمَّام في طرفيّ نقيض: متعصبٌ له يعطيه أكثر من حقه، ويتجاوز به في الوصف قدره، ويرى أن شعره فوق كل شعر، أو منحرفٍ معاند، فهو ينفي عنه حُسنه، ويعيب مختاره، ويستقبح المعاني الظريف التي سبق إليها وتفرد به".

ورغبة في التجديد زين "أبو تمام" أشعاره بالفلسفة والحكمة، وكذلك الإشارة إلى العلوم والاكتشافات العلمية، وكل هذا بحس مرهف وطرق معاني لم يقصدها من سبقوه. وأكَّد تفرُّده بتدعيم قصائده بسائر ألوان البديع، فصارت له منهاجية يُحتفى بها.

ومن الجدير بالذكر أن أسلوب "أبو تمام" وتجديده نهل منه اللاحقين من الشعراء الذين تصدَّروا المشهد الشعري مثل "المتنبي" الذي سار على دربه في شدة الفخر بنفسه وعناق الجديد والحكيم من القول في قصائده. والحديث عن "أبو تمام" لا ينتهي، لكن يمكن تلخيصه في قول المُبَرِّد: "ما يَهْضِمُ شعر هذا الرجل إلا أحد رجلين: إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، وإما عالم لم يتبحَّر شعره، ولم يسمعه".❑❑

UNIVERSITY OF CALGARY

ود الملك زلزل رجال الدين

بثينة تروس
السودان

❑ (درامي سخيف، علماني، وسخ، شفاتي، ثورجي، شيوعي، مرتشي، وراهم تمويل غربي لهدم الدين، وتشويه الإسلام، ومعاداة رجال الدين، وسغيل، وما شادي حيله، نشر زواج رجل من رجل، سيداوا، تشويه الأئمة والدعاة، والاستهانة بحرمة منصب الامام، ملحد، كافر، هدفهم الطعن في المتدين، الطعن في الملتحي. جاهدوهم ما تقتلوهم، اجلدوهم، امرأة رقاصة، وعورتها بره دايرة توقف بيها دين الله! أي واحد يلاقي في الشارع يتف لي في وشه على ضمانتي)، ولم تفوت عليهم الفرصة في التعرض للمناهج ودكتور عمر القراي.

هذا غيض من فيض طفحت به افواه، وحناجر أئمة المنابر، في يوم الجمعة بالمساجد في أيام هن مباركات عند الله، لا يصح فيهن غير الطيب الصالح! يظنون جهلاً انهم يدافعون عن صورة الائمة من التشوية، ولكنهم نجحوا في تأكيد ان هؤلاء هم رجال الدين، بل هؤلاء هم الأئمة.

وبجهالة لا يحسدون عليها، فقد نصر أئمة وخطباء مساجد الخرطوم، قضية المسلسل الدرامي (ود المك) الذي اخرجه المسرحي هيثم الامين، وبطولة كل من مصعب عمر المشهور ب (زول سغيل)، واحمد البكري، وسلافة مكي، واوسو، وصلاح احمد الذي جسد دور رجل الدين الفاسد والمرتشي (شيخ الرفاعي)، الإمام المفتون بمتع الدنيا، وبه خصلة البخل، والتجسس على الجيران.

لقد غضب أئمة الجوامع لأنفسهم ولم يغضبوا لله، فالله حافظ لدينه، لكنه الحرص على المكاسب، والمناصب، والجاه، وخدمة الحكام، والتملق لهم، فهم من قديم، جعلوا لأنفسهم طبقة مجتمعية، ذات طابع قدسي، هم الفقهاء في الدين، الذين وظفوا أنفسهم ليفتون في أمور الناس، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ القلب وان افتاك المفتون).

ان آفة الدين هي رجال الدين أنفسهم، من الذين شغلتهم قداسة اللحى، ثفنات الصلاة، والتدين الشكلي، من معايير التدين الحقيقي في الاخلاق، وتحري الحق، والتواضع، والخطاب المؤدب بأدب الدين، وسماحة النفس (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء). لقد درج رجال الدين في مواجهة نقد الفكر الديني والإصلاح، على استغلال عاطفة الشعب المتدين المحب بفطرته للدين، والارهاب الديني في مواجهة الخصوم.

ثم الم تكف السودانيين، والرأي العام فيه، تجربة الإرهاب الديني التي امتدت الى ثلاثين عام من الحكم الإخواني، الذي سادت فيه الشئون الدينية والفقهاء واستعلوا، وكانوا لا يستحون من عبارة (علماء السلطان).. تبادوا المنافع والمتع الدنيوية، يحللون لهم الفساد، ثم هم أنفسهم يفسدون في منظمات الدعوة الإسلامية، وسرقة أموال الزكاة، والحج والعمرة، والاوقاف، وصمتت تلك الحناجر، والقلوب الخاوية، خوف بطش اللجنة الأمنية والسجون، ولم ينقدوا منكرا في ذلك الزمان ولو بكلمة حق، بل أفتوا (بقتل ثلث الشعب). الشاهد أن هؤلاء الخطباء، لا يؤمنون بالديموقراطية، لكنهم يستهينون بالسيولة الأمنية الراهنة، وحالة اللا دولة في عهد البرهان، يتجاسرون بفضل دماء الشباب الثائر، والجيل الذي قام بهذا العمل الدرامي الذي أقض مضاجعهم!

ويكفي نموذجا شخصية أمام مسجد خاتم المرسلين والداعية الشيخ عبد الحي يوسف، صاحب (الظرف الرئاسي) الذي تسلم مبلغ خمسة مليون دولار لقناة طيبة، ولديه أربعة عشر وظيفة يقبض مرتبات جميعها، والشباب تقتله العطالة. ولا يستحي من أن يحدث الناس وذكرهم ان (دين الله خط احمر).

اما فتاوي تحليل فساد وجرائم الائمة، والاعتداءات الجنسية المتكررة لرجال الدين، من أمثال الامام (ن.أ) الذي اغتصب طالبة وادانه القضاء بالجلد وعشرة أعوام سجن، وعفي عنه الإسلاموي المخلوع البشير، وعاد يصلي بالناس في المسجد، بالتواطؤ وصمت رجال الدين.

يحدثنا الشيخ محمد مصطفي عبد القادر في معرض نقده للمسلسل، كيف جازت مثل تلك الجرائم الفظيعة (ممكن امام جامع يغتصب ليهو ولد، عادي جدا ما فيها هناي.. لكن، لما تتكلم البتكلم في الكلام دا يتكلم شنو؟ يتكلم عالم، بعدين تتكلم بالتعميم... وتستر عليه الا إذا جاهر) يوتيوب 1 ابريل 2023

والفتوي توكد على ان الذي أزعجهم ليس عيوبهم! وانما كشف الدراما لسترها، (وان تبدوا ما في أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) فالسلفيون اعجزتهم الحضارة الغربية، وبالرغم من اللحى وقصر الجلابيب، وحمل العصي، لم يفلحوا في اتخاذ الدواب كوسائل مواصلات! فحملوا القرن السابع في تفكيرهم الديني، لكنهم اجبروا بحكم الوقت على اللحاق بركب الحضارة الغربية، ومنتوج العلمانية، وبلاد الكفار في التقدم التكنلوجي، والعولمة، فاستخدموا وسائل التواصل الاجتماعي، وقنوات التلفزيون، واليوتيوب، وصنعوا كتائب جهاد إسلامي حرباً على كل من يخالفهم.. وهم في دخيلة أنفسهم، يؤمنون بفقه ملك اليمين، والرق، ولا يمانعون الأئمة (العيالاتية)! والولدان الخصيان، ويتمنون عودة مجون العصر الاموي والعباسي. وهؤلاء العلماء بزعمهم في خصومتهم، لا يقارعون الناس بحجج الفكر والمنطق، يمنعون الناس من اعمال الفكر والنقد المستنير، يلجأون للوسائل المجربة في التكفير، وتحريض السلطة، ويظنون انهم الواسطة بين الله وعباده، وأن لهم (حصانات) الهية لا يسمحون بانتزاعها.

ولقد حمدنا للمخرج، عدم الخضوع للإرهاب الديني، ومواصلة عمله الدرامي الناجح، وتجربته الرائدة في انتشال الدراما من النمطية التي تروق لأذواق، وفتاوي الائمة والفقهاء، من شاكلة (فضيل)، والتعنيف بالنساء، وسبهم، والانقاص من قدرهن، بالتحريض على التعدد، وزواج السر، والمتعة والمسيار، والفساد، وسوء الاخلاق المشرعن. فلقد قدمتم أيها الشباب الواعي عمل درامي راقي في فنياته وفي محتواه، تعرض لازمة الاخلاق، في عمل واقعي يلامس تطلعات مجتمع ثورة ديسمبر في التغيير، والحياة الانسانية الكريمة، فهلا اختشي رجال الدين؟!❑❑

جورية بيضاء

لؤي الشقاقي
العراق

❑ جوريةٌ بيضاء
لون آديمها يسحر
عسليةٌ
وطعم رحيقها سُكر
وعبق عبيرها يُسكر ..
وانا في الوصف يا جوريتي البيضاء
اكاد أضيع اكاد أضل
اكاد أتيه في المنظر
وعلى نكران مافي القلب
لا أقوى ولا اقدر ..
عسليةٌ
يا لذيذة النكهة
و بلورية المنظر
يا لوزية العينين
وثغر باسم اقتر
يا جوريتي البيضاء
انتي القهوة العذبة
وانتي مرة حلوة
فحتى مركِ سكر❑❑

الفولكلور والماركسية

زينب محمد عبد الرحيم
مصر

❑ تقديم :
يُعد الباحث الروسي يوري سوكولوف من أوائل الذين انتبهوا لأهمية الثقافة الشعبية بالنسبة لأي شعب من الشعوب فالفولكلور هو الذخيرة الحية والعُملة الحقيقية المتداولة في الحياة اليومية بين البشر, وقد نجح سوكولوف ومعه جيل من العلماء في تأسيس علم كامل وهو ما نسميه بعلم الفولكلور, واستطاعوا أن يدرسوا ويفهموا الإنسان باعتباره اللبنة الأساسية في هذا الكون, وكانت أعمال يوري سوكولوف من أهم الأعمال في علم الفولكلور وخاصةً كتابه (الفولكلور قضاياه وتاريخه) وقد قام بترجمة هذا العمل الأستاذ حلمي شعراوي والأستاذ عبد الحميد حواس وقام الدكتور عبد الحميد يونس بمراجعة هذه الترجمة, وكتاب يوري سوكولوف (الفولكلور تاريخه وقضاياه) نشر في أصلهِ الروسي عام 1941-1950 وترجم إلى العربية عام 1971.

''إنَّ الفولكلور صدى الماضي, ولكنه في نفس الوقت صوت الحاضر المدوي''

لقد كان الفولكلور وسيظل انعكاسًا للصراع الطبقي وسلاحًا له, وبالتالي فإنه لا يتميز في طبيعته بأي حال عن الأدب الفني من حيث وظيفته الاجتماعية كانعكاس وسلاح للصراع الطبقي, ارتبط ذلك بالبحوث التي تُعالج الإبداع الشعبي وفي الدراسات الفولكلورية السوفيتية والتي أدت تدريجيًا إلى سيادة النظرية الماركسية – اللينينية ومنهجها وسيادة الأسس العامة للمادية الجدلية وتطبيقها على دراسة المادة الفولكلورية.

ولابد لنا من أن نسنفيد من الآراء التي قدمها ماركس وانجلز ولينين ومارين وأيضًا بلافارج الذي ترك فيما كتبه عن الأدب الماركسي أحكامًا صائبة تتعلق بالفولكلور, وقد أظهرّ ماركس اهتمامًا خاصًا بالملحمة اليونانية ويعتبر ما جاء حولها من تعليقات في كتابه (نقد الاقتصاد السياسي) ذا أهمية فائقة للفولكلوريين, فقد أثار ماركس في هذا الكتاب مسألة من أكثر المسائل أهمية عن (عدم الإتساق في تطور أشكال الثقافة) ويشير إلى أنه ''حيث تكون المقدرة الانتاجية متخلفة جدًا, وعلاقات الانتاج على درجة غير كافية من التطور, قد تنمو أحيانًا أبنية فوقية ثقافية من الثراء والقوة إلى حد أنها تمد تأثيرها إلى العصور التالية من تطور المجتمع''.

بالنسبة للفن من المعروف إنّ المراحل المُحدده لتطوراتهِ الكُبرى لا ترتبط بالتطور العام للمجتمع, وبالتالي لا ترتبط بتطور الأسس المادية له والتي تُكون هيكل تنظيمه, ويستطرد ماركس: ''بالنسبة للأشكال الفنية المتعددة كالملحمة, فمن المعروف أنها حتى في شكلها الكلاسيكي (مشكلة مرحلة في تاريخ العالم) كان يمكن ألا توجد اطلاقًا, طالما أن الانتاج الفني قد بدأ تلك البداية, ذلك أنه بهذه الطريقة وفي ميدان الأدب نفسه يمكن أن توجد تلك الأشكال الخاصة ذات الأهمية العالية في مرحلة متخلفة نسبيًا من التطور الفني ''(كارل ماركس, مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي المؤلفات الكاملة, معهد ماركس وانجلز ولينين، مطبعة الحزب عام 1933 مجلد 12 ,ج1 ص:20)

يؤكد ماركس التناقض بين الفن الرفيع في عصر معين وبين المستوى الأدنى نسبيًا للتطور الاجتماعي في ذلك العصر, ويشرح ماركس هذه التناقضات قائلًا: ''إذا كان هذا التناقض يحدث في ميدان الفن وفي العلاقات بين أشكاله بعضها مع بعض الآخر فإنه لا يدهشنا كثيرًا أن يحدث ذلك في العلاقة بين مجال الفن الكلي وبين التطور الاجتماعي العام وترجع الصعوبة إلى الشكل العام لهذه المتناقضات فحسب ويلزمنا فقط عزل كل منها لتفسيره ولنأخذ مثلًا علاقة الفن اليوناني ومن بعده فن شكسبير بما كان يعاصره فمن المعروف جيدًا أن الميثولوجيا اليونانية لم تكن مخزن الفن اليوناني فحسب وإنما كانت هي التربة التي نما عليها أيضًا فهل من الممكن أن يوجد الاتجاه نحو الطبيعة والعلاقات الاجتماعية التي تعتبر أساسًا للخيال اليوناني وبالتالي الفن اليوناني هل كان من الممكن أن يوجد كل ذلك مع وجود الآلات الميكانيكية أو السكك الحديدية والقطارات والتلغراف الكهربي؟ ماذا كان يمكن أن يصنع فولكان (إله النار) مع روبرت وشركاه, إنّ الميثولوجيا تقهر وتسود وتشكل قوى الطبيعة خياليًا أو بمساعدة الخيال وهي بالتالي تختفي بالسيادة الحقيقية على هذه القوى الطبيعية'' (المصدر السابق نفسه)

وقد عرف علم التاريخ الماركسي أن يُقيم الظواهر الأيديلوجية على علاقات اجتماعية اقتصادية محددة, ولكن دارسي تاريخ الفن من الماركسيين مازالوا يواجهون مشكلة تفسير: لماذا يظل الانتاج الشعري الذي خُلقَ تحت ظروف معينة يبعث المتعة الفنية على مجرى قرون عديدة وفي بيئات اجتماعية وثقافية مختلفة تمامًا؟!

ويُفسر ماركس المتعة التي لا تنقص والتي تحتويها الملحمة اليونانية القديمة ويقول: لا يستطيع المرء أن يرتد طفلًا ولكن يشعر بالبهجة من سذاجة الطفولة, ألا يضطر هو نفسه للجهاد نحو أن يبعث طبيعته الأصلية على مستوى أعلى؟ فلماذا لا يكون لطفولة المجتمع الإنساني حيث كانت في أجمل مراحل نموها, من السحر الخالد أن تؤثر علينا, باعتبارها مرحلة لن تتكرر ... ومن الأطفال من لم يتعلم, ومنهم من له حكمة الشيوخ.

وكثير من الشعوب القديمة تنتمي إلى الفئة الأخيرة. وقد كان لماركس وانجلز اهتمامًا منذ سنواتهما الأولى المبكرة بما أبدعته المراحل الأولى للتطور البشري وعلى التخصيص كان اهتمامًا بمختلف أشكال الفولكلور التقليدي وقد كان لأنجلز مناقشة في مقالاته حول الكتابات الأدبية الفولكلورية وأكد أنه قد يكون لها تأثير سياسي ولما لها من أهمية دعائية في الصراع من أجل الحرية ضد النبلاء والكنيسة وقد كتب انجلز في شبابه: أنْ للكتاب الشعبي دوره في تسلية الفلاح حين يكون متعبًا أو حين يعود مساءً من عمله اليومي الشاق فإنه يتلهىّ به ويبتهج له مما يجعله ينسى متاعبه المثقلة ويحول صخور حقله إلى حديقة ذات أريج, وللكتاب الشعبي دور في أن يجمع بين المضمون الشعري الفني والنقاء الخلقي.

ولا بد أن يكون الكتاب الشعبي متجاوبًا مع عصره ويعزز الصراع من أجل الحرية ومقاومة ظلم الأرستقراطية والكفاح والوضوح العقلي ضد التزمت الديني, فقد أخذ انجلز في اعتباره الوظيفة الاجتماعية السياسية للكتاب الشعبي في عصرنا الحديث ويعلن انجلز بجرأة ضرورة الفحص النقدي للكتب الشعبية فيقول أن هذه الكتب بحاجة إلى مراجعة ذكية وأشاد بأعمال الأخوين جريم ولكنه أكد أن ليست كل الأعمال ومحاولات جمع المادة الشعبية ستكون بنفس الدقة والدافع فلذلك وجب الفرز واستبعاد الأعمال الأقل جودة. وأجمالًا يمكننا أن نلخص وجهة نظر إنجلز أنه ميز بين وجهين للفولكلور: قيمته الفنية وأثره السياسي التربوي أي الوظيفة الاجتماعية السياسية كما أكد أكثر من مره على قيمة الفهم التاريخي لنتاج الفولكلور.

ولمؤلفات لافارج La Fargue أحد الماركسيين الأوائل ومن الذين أكدوا بقوة واصرار على الأهمية التاريخية للأغاني الشعبية وقد خص مجال الفولكلور ببحث عن (أغاني وعادات الزواج الشعبية) 1886 م, ولمؤلفاته أهمية منهجية بالغة فالأغنية الشعبية بوجه عام تحمل طابعًا محليًا وأحيانًا يأتيها الموضوع من الخارج ولكنه يكون مقبولًا في حالة توافقه مع روح وعادات هؤلاء الذين يقبلونه, وقد رأينا بين شعوب متباعدة ومختلفة أغاني وحكايات أسطورية وعادات متشابهة, ويظن الباحثون أن هذه الأشياء قد انتقلت من شعب لآخر أو أنها كانت جزءًا من مقومات تراثهم الروحي وعلى هذا النحو من التشابه نجده في الاغاني وأمثال وعادات متشابهة وقد نشأ الشعر الشعبي نتاج الجماهير ومن نفس أسلوب حياة الشعب إذ يغني الناس أغانيهم بتأثير الانطباع المباشر لخبراتهم الانفعالية ونتيجة لدقة وصدق الأدب الشفاهي أصبحت له قيمة تاريخية كبيرة تفوق قيمة أي انتاج فردي

منعزل ولهذا يمكن أن يستفيد أي إنسان منه عن ثقة دون أن يخشى تضليلًا.

ويقول لينين أنه يجب على علماء الفولكلور أن يعمموا ظواهر الفولكلور وأن يقوموا بتعزيزه من وجهة النظر السياسية الاجتماعية وعليهم أن يكتشفوا في الفولكلور تاريخ آمال الجماهير العاملة وأمانيهم في الماضي, وأن يتفهموا الفولكلور كمادة هامة لدراسة سيكولوجة وأيديلوجية الجماهير في الوقت الحاضر وكان شغف لينين بالفولكلور لأنه سجل تاريخي وشيء ضروري للعمل السياسي والاجتماعي في العصر الحاضر وأن من المهام الرئيسية للدراسات الفولكلورية أن تدرس آمال وتطلعات الجماهير الكادحة, فالفولكلور يعتبر ميدانًا للصراع ليس فقد حول التفسيرات المتضاربة وإنما كذلك بين الطبقات التي استولت على تراث العمال فلقد استولى كبار المزارعين أو صغار البورجوازيين على تراث الشعب وهي عملية نفسر من خلالها ظهور أنواع متشابهة من التراث بين طبقات اجتماعية مختلفة وبناء على ذلك يجب ألا تترك الملاحم الشعبية والأساطير والحكايات الشعبية والأهازيج أو الأغاني القصيرة والبكائيات لتتجول على غير هدى بين الجماهير, وإنما ينبغي أن تجمع وتؤلف طبقًا لتوجيه مناسب ثم تُنقى وتوزع بين العمال عن طريق كل الوسائل المتاحة إذاعة, سينما ,مسرح ...إلخ

فالأدب الشفاهي لن يخدم القضية الاشتراكية فحسب وإنما خدم القضية القومية أيضًا وذلك من خلال صهر الشعوب المختلفة في وحدة أكثر تماسكًا على التراث المشترك للعمال وذلك محاولة لمناهضة القوى الرجعية والصراع بينها وبين التقدمية وقد تبلور تلك الفكرة في مقالة ل زيملجانوفا المنشورة عام 1962 في دورية الإنثوجرافيا السوفيتية وعنوان المقال:
(الصراع بين القوى الرجعية والتقدمية في دراسات الفولكلور الأمريكي المعاصر) وقد قامت الدكتورة نبيلة إبراهيم بترجمة هذا المقال في مجلة الفنون الشعبية العدد 12, عام 1970تحت عنوان الدراسات الشعبية الأمريكية بين قوى التقدمية والقوى الرجعية).

والتقدميون هم أولئك الدارسون الذين يعني التراث الشعبي عندهم الفن الحي المتطور للجماهير العريضة الكادحة, ويتمثل هذا الأعتراف التقدمي بالطبيعة الطبقية للتراث الشعبي في أعمال (إروين سيلبر) الذي قدم كتاب أغاني الحرب الأهلية نصوصًا تكشف عن أفكار تقدمية عن الصراع ضد العبودية إلى جانب أغانٍ تعكس الطبيعة المحافظة في الجنوب, وتتلخص وجهة نظر زيملجانوفا أن هناك بالفعل جانبًا ضخمًا من تراث الاحتجاج الزنجي ضد الرأسمالية البرجوازية وما يهمنا من مقالة زيملجانوفا هو تلك الفرضيات العقائدية عن الفولكلور بصفته تعبيرًا عن الصراع الطبقي ومن خلال هذا المقال ل زيمجانوفا قد تم الألتزام تمامًا بتعاليم ماركس ولينين والتي تم تطبيقها بثقة على دراسات الفولكلور الخاصة بالولايات المتحدة وربما على أي بلد آخر. ❑❑

المصادر :
1. يوري سوكولوف, الفولكلور قضاياه وتاريخه , ترجمة حلمي شعراوي , عبد الحميد حوّاس ,مكتبة الدراسات الشعبية , الطبعة الثانية 2000
2. محمد الجوهري ,علم الفولكلور المجلد الأول الأسس النظرية والمنهجية , مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ,القاهرة 2010
3. كارل ماركس , مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي المؤلفات الكاملة ,معهد ماركس وانجلز ولينين ,مطبعة الحزب عام 1933 مجلد 12 ,ج1 ص:20

يوميات صبي صغير

حسين عبد الساتر
فلسطين

❑ في بلادي ينام الناس
فوق أسطح دورهم الترابيه
كي تستقبل السماء
أحلامهم والأماني دونما حجاب...
كي يتلقوا وعد السماء
والعطايا دون وسيط...
في بلادي ينام الصبية عطشى
والنهر على مرمى حجرٍ
بيد أن دون النبع غولاً
يخطف الدمع من محاجر العرائس
في بلادي...الحقول غدت صفراء...يقترسها الجراد القادم من بعيد
والأشجار أجهضت ثمارها...فلا غيم يعبر
ولا دعاء يُستجاب
وحده السؤال يتدلى من أعين الأمهات دمعاً كالحصى
يخدش بهاء الخد ويزيد العمر دهور....
وحده السؤال يتدلى في شراشيب سُبّحات العجائز السوداء
ووحده الصمت يطرح الجواب.....

(٢)
وضعتني أمي في موسم الحصاد...
بين شتلات الحشيش الخضراء...
قبضت علي التراب إذ جاءها المخاض
صرخت....
خذيه أيتها الأرض الأم...
هذا بِكري لك...
خذيه وارمهِ للحياة قرباناً
عسى ترضى السماء
فتنبت حقولنا سنابل حبلى....
.....
مذ وُلدتُ هناك... طعم التراب يستوطن حلقي
والغبار يُعفّر وجهي...
ووجهي مشطور لا يدري
أي الدروب يمضي
قد كبلتني هناك أمي....❑❑

فيروزنا

نوال شق
سورية

❑ يسعدني أن أستلقي على الفراش كل اليوم
لا أفتح عيني ولا أسمع أي صوت
سوى فيروز تغني
أساميا شو تعبو أهالينا تلاقوها وشو افتكرو فينا

متيقظة يبدو كل شيء واضحآ بالنسبة لي إلا الوقت (واسمي)
ومشاعري الشتائية في فصل الربيع تمنحني شعورآ مريحآ
لتبدو كل أحزاني سخيفة الأن
ماعدا حزن واحد يخنقني

لايستطيع المرء أن ينسى كونه حزينا مدة طويلة
تبآ لك فيروز عبرت بي:
(بكتب أسمك ياحبيبي عالحور العتيق
بتكتب أسمي ياحبيبي عرمل الطريق)
ثم قتلتني:
(أمي ياملاكي ياحبي الباقي الى الأبد
ولاتزال يداك
أرجوحتي ولم أزل ولد)

ولم أزل أحمل وعدآ بأن أسلم عليه ولم أسلم ..
وأخيرآ
بيبقى أسمك واسمي بينمحى❑❑

The Leftist
WRITER
The First and Only Multi-Cultural Review in Diaspora
Academic - Political - Ideological - Critical and Cultural

Dr. William Nassar
I am Israel

Issue No. 78 :: April 2023
Specialized in Written Creativity and Freedom of Thought
العدد رقم 78 :: نيسان – أبريل 2023

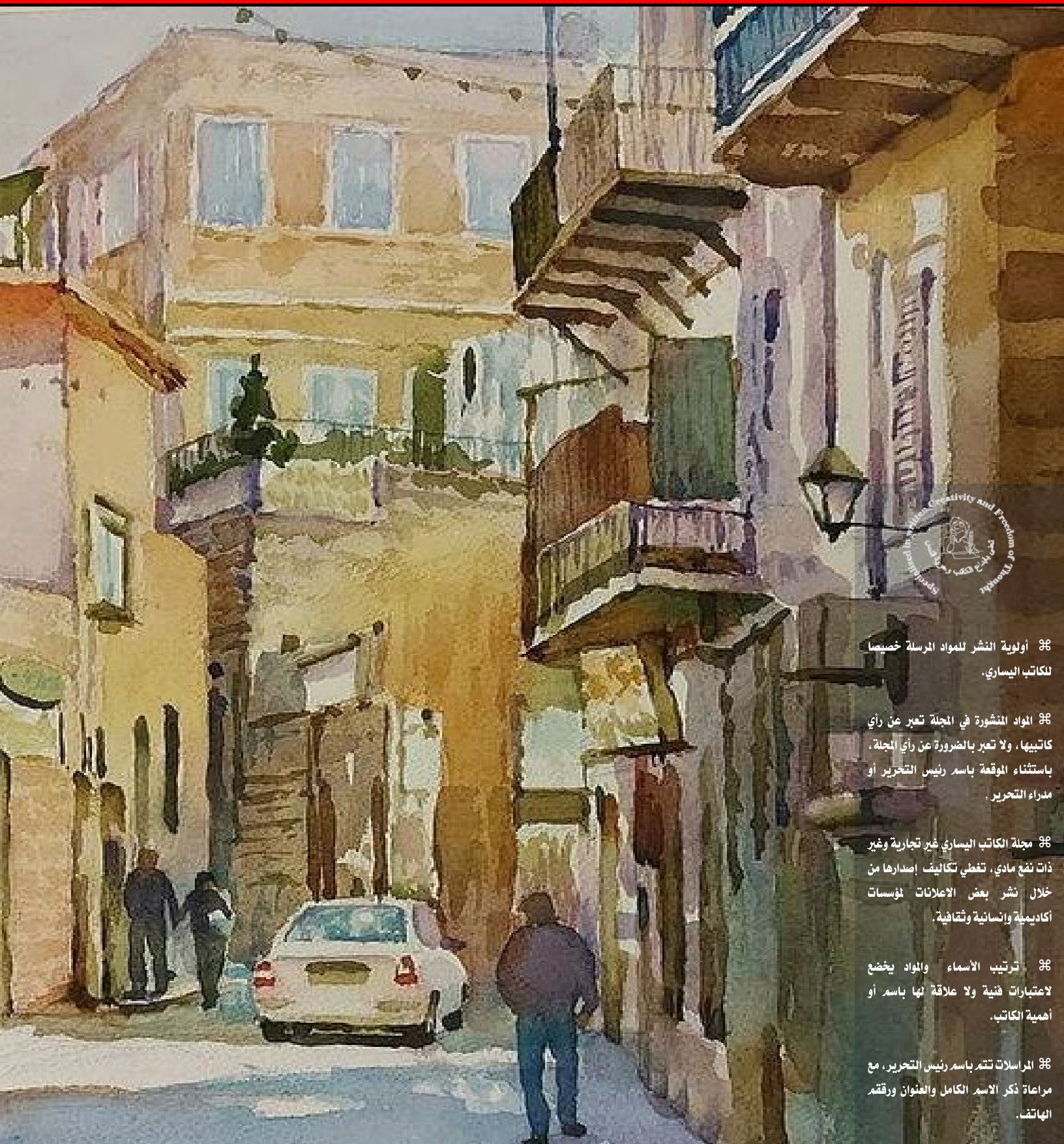

⌘ أولوية النشر للمواد المرسلة خصيصا للكاتب اليساري.

⌘ المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، باستثناء الموقعة باسم رئيس التحرير أو مدراء التحرير.

⌘ مجلة الكاتب اليساري غير تجارية وغير ذات نفع مادي، تغطي تكاليف إصدارها من خلال نشر بعض الاعلانات لمؤسسات أكاديمية وانسانية وثقافية.

⌘ ترتيب الأسماء والمواد يخضع لاعتبارات فنية ولا علاقة لها باسم أو أهمية الكاتب.

⌘ المراسلات تتم باسم رئيس التحرير، مع مراعاة ذكر الاسم الكامل والعنوان ورقم الهاتف.